رمـل الأفعـــى

سيرة كتسيعوت - معتقل أنصار ٣

المتوكّل طه

لوجو
الهيئة المربع

www.alkottob.com

سلسلة
آفاق عربية

تصدرها
الهيئة العامة لقصور الثقافة

رئيس مجلس الإدارة
د. أحمد مجاهد
أمين عام النشر
سعد عبد الرحمن
الإشراف العام
جمال العسكرى
الإشراف الفنى
د. خالد سرور

• رمل الأفعى
• المتوكل طه
الهيئة العامة لقصور الثقافة
القاهرة 2010م
176ص. 5ر13 × 5ر19 سم
• تصميم الغلاف: أحمد اللباد
• المراجعة اللغوية:
محمود أبوعيشة
• رقم الإيداع: ٢٤٥٣/ ٢٠١٠
• الترقيم الدولى: 978-977-479-865-2
• المراسلات:
باسم / مدير التحرير
على العنوان التالى: 16 أ شارع أمين سامى - قصر العينى
القاهرة - رقم بريدى 11561
ت: 27947891 (داخلى: 180)

• الطباعة والتنضيد:
شركة الأمل للطباعة والنشر
ت: 23904096

124
سلسلة شهرية تعنى بنشر أعمال الأدباء العرب

• هيئة التحرير •
رئيس التحرير
إبراهيم أصلان
مدير التحرير
لبنى الطماوى

الآراء الواردة فى هذا الكتاب لا تعبر بالضرورة عن توجه الهيئة بل تعبر عن رأى وتوجه المؤلف فى المقام الأول.

• حقوق النشر والطباعة محفوظة للهيئة العامة لقصور الثقافة.
• يحظر إعادة النشر أو النسخ أو الاقتباس بأية صورة إلا بإذن كتابى من الهيئة العامة لقصور الثقافة، أو بالإشارة إلى المصدر.

رمل الأفعى

www.alkottob.com

إلى أولئك الأصدقاء
وإلى تلك الأيام الصعبة .. والطيّبة

www.alkottob.com

تنظر حولك فترى عسلَ الضُحى يُغطّى نهارَك من أوّله ! ما هذه الشجون التى تحطّ على غصون قلبك ، أيها الناظر فى كل الاتجاهات ؟ ثمة زنجبيل يُعبئ الهواء ، وثمة عملاق خرافى يُشقّق سقفَ الأرض ، وينذر بدخان كثيف وغبار قاسٍ !

.. وسيخرج ، بكامل رماده وعُرْيه ، وستبقى انحناءته ، حتى لا تضيع ملامح المدن أمام عينيه . ويرى هلع المخلوقات ، وحركتهم المتوترة الحائرة -قبل أن يهدأ روعهم- فتزداد دهشته ، ويحاول أن يمعن بعينيه الواسعتين ، فى تفاصيل الفسيفساء المتناثرة .. فيرى جنوداً بحجم البيادق ، يصوّبون رصاصهم نحوه .. فينخدش لحاء ساقيه .. وتسرى قشعريرة الوخز فى بدنه ، فيمدّ أصبعيه ، بين الأزقّة ، يلتقط المدجّجين ، كما يلتقط فلاح يستريح فى ظل كوخه ، النملَ الأحمر ، ويفركه بيده الخشنة .. وينهض ثانيةً ليكمل افتراع

www.alkottob.com

حقله بمحراثه الصُلب ! دون أن يكترث ببيت النمل . لعلم هذا الفلاح الطاعن بالأرض، أن أيام الشتاء القادمة، ستدفن النمل، وسيبزغ شَعر الربيع الناعم، بثقة ويسر، وهدوء !

* * *

سندخل هذا المحيط الرملى، دون أن نخشى الغرق. فالصحراء، رغم هوامها وأفاعيها، أكثر رحمةً من سمك القِرش البحرى، أو من حطم التماسيح الهائجة فى المستنقعات. وفى النهاية، فإن الصحراء أكثر دماثة وشفافية من البحر – رغم أنها أقل حياة منه – غير أن كلاً منهما له فتنته ومنطقه وأسراره، ولكل منهما مفاتيحه وأغانيه وغوائله.

ويبدو أننا ننتمى لثقافة الصحراء؛ فكم فغرنا أفواهنا أمام بأس فرسانها المُنصفين، وجنون شعرائها العذريين، وكم غفونا على حكاياها، وعمّتنا النخلة تظللنا بجدائلها الكبيرة، حتى كنا نرهب حمام الدار إذا بغم، ظنًّا منا أن حدأة الحكاية هى تلك المستوحشة التى تهدل على شباك البيت . وربما وضعنا أيدينا الصغيرة فوق رؤوسنا، خوف أن تنقر الحدأة رؤوسَنا بمناقيرها الحاذقة.

سندخل هذه الصحراء التى يبدو أنها كانت مدنًا من نحاس نخّلَتها الرياحُ وعويل الليالى، فانفرطت، واستوت رملاً ... وها نحن نطأ الرمل، لكننى أسمعُ تهاليل الوالدات، وشخب الحليب اليانع، ومناداة بائع الفاكهة السمين، واعترافات النساء خلف ستار التوبة، والرهز فى بيت الأمير، وأنين حاملى الماء فى الأسواق ...

أسمع سقوط الكمثّرى فى جدول البستان الكبير، ومنطقَ الطير، كأن العطّار النيسابورى أكمل أشعاره المتبتّلة هنا، بل هنا كان ابن القارح يدور على الشعراء من ضفّة الجنّة إلى ضفّة النار، وهنا حطّ الهدهدُ على باب سليمان، ورفعت بلقيسُ ذيلَ ثوبها خوف ماء الرخام، فانقشع البرّ وتلعثم الجان !

هنا، على هذه الصحراء استراح ذو القرنين، قبل أن يموت مخموراً بالنصر، وقتلوا لوركا دون أن تفترّ فَراشةُ القُبلة فى شفتيه، تلك التى وشمتها امرأةٌ هى كل الغجريات . وهنا حطّت سفينة نوح، وابتاعت نفرتيتى الإثمد لجفنيها، وسكبوا الحمامةَ لملكة النهرين سميراميس. هنا تبلبل الخَلْق أول مرّة، وابتدأ مسمار الحضارة والكلام... وهنا نكمل، على أطلال الصدى، جبروت جدّنا عوج بن عناق، الذى كان يجلس، بالضبط هنا، فيمدّ ذراعه فى البحر المتوسط، ويمسك بالحوت، ويضعه فى عين الشمس، ويصطلى لذةً بالشواء.

* * *

ندخل إلى حضرة الصحراء، وما فتئت همومنا تشغلنا عن التبؤّر فيما حولنا، وإمعان النظر فى هذا الفضاء الجديد. ونواصل تأثيث المكان بما نمتلكه، بالترتيب والتحديد، والتشدّد فى النظافة ... ونحتاج – على ما يبدو – إلى أيام حتى نكتشف حداثة أحاسيسنا، تجاه كل ما تقع عليه عيوننا. والغريب، ربما، وبعد بضعة أسابيع، أننا نتأقلم مع المكان، حتى ننسى من أين جئنا، ولماذا، وإلى متى ...

www.alkottob.com

كأننا وُلدنا هنا، وخُلقنا هكذا، فجأةً، بالكيفيّة التى نحن عليها، ولا تحزّنا سكينُ الحقيقة إلاّ عندما نخلد للنوم أو لأنفسنا، أو عندما تقع حادثةٌ خارج السياق اليومى الرتيب.

كان ثمة جدارٌ سميك يلفّ المعتقل، من كل جنباته، يفصله عمّا وراءه، جدار لا يُرى، لكنه سدٌّ مانع، يحول بين الصحراء وما خلفها.

وهنا، فى مدينتنا المسوّرة المغلقة، يصبح النسيان نعمةً، تمنحنا القدرة على التجدّد والمثابرة والمضاء، وتصير الغفلةُ التى طابت لنا، وسعينا إليها، بلا وعى، ربما، أوقاتًا مريحة رحبة، طالما فككنا خلالها أثواب الضيق والاختناق، عن روحنا، فتنطلق من إسارها... لعلها تتّحد مع نجمة تدفّ بفضّتها، وتنادى الروح، لتأخذها إلى بيتها... هناك، معها فى البعيد.

* * *

أين الرمل فى جسدى؟ ما دمتُ أعرف أن الماء والمعادن والتراب كُلّها فيه. إذًا، أين الرمل؟

أنأى بالقلب ومصادر الحواس، معتقدًا أنها من تراب خصب وماء؛ فما الذى يبقى فى الجسد؟

يبقى الكثير، ولكن، ما هى القطعة التى ستعود رملاً بعد الموت؟

ربما العظام، لأنها أقرب ما تكون لهذه الذرّات الجافة التى لا تشرب الماء، وتصرّ على عطشها إلى أبد الداهرين، بل تكره أن تكون رحمًا ينشأ بينه الزرع أو الضرع.

هل يكره الرملُ الحياة والنماء؟ هل هو جماد عبثى، اكتشف مبكّرًا النهايات المُفزعة، فآثر التفرّد والوحدة، وعدم التعلّق بصاحب أو شبيه؟ وهل أقول إن جفافَهُ تعبير عن رغبة فى العزلة والابتعاد، وكراهية لكل ما يَنبت من البذور والجذور.. ولهذا يبتعد عنه المطرُ، يأسًا من طبيعته وإصراره على الضمور واليباس، مهما أغرقه فى غيثه، وبسط له من نور برقه؟

ألهذا السبب يخفّ حمل رمل الصحراء حين يغضب ربّ الرياح، فيصير جناحًا أسود من شواظ، يولول فى حمأة الظهيرة، ويحطّ حيث يبدأ الموت؟

– ربّما، يصرّ الرمل على خديعة الإنسان، يبدو ناعمًا، يهفت تحت الأقدام، ساحرًا بشنياته اللامعة.. لكنه ماكر، يُخفى بئرًا عند كل خطوة –

والرمل ذاكرة مخيفة، يدفن فى طيّاته الكثير من الصهيل والنشيج والدماء والحسرات! وهو مساحات بلا أفق، تختزن الشمس والليل فى معطفه، يتسلل ويرسو بطرائقه الغامضة الخاصة، يحتلّ ويسيطر، ويهبّ عند كل خريف.

والرمل موج البرّ الذى يحدّ الأشياء، يجاور البحر، ويضع له حدًّا، ولا يشبهه، والرمل يبتهج بأمثاله من الصعاليك والعشاق المشروخين، لا يطرب لناى، ولا تبكيه ربابة، حياده قاسٍ مثل صُبّاره وطيوره، وله ألوانه الذهبية المتماوجة، كأنها تجاعيد الأرض الهرمة، أو وجه الساحرة المتغضّن، التى ذهبت بعيدًا فى العرق والخطايا.

www.alkottob.com

ولا يفوز عليه إلا الصبور المُجْتَرّ أو الثعلب الحديد، عليه يُقام الخباء – كأنه يختبئ من القيظ والصلّ والهجير – ليهيّئ للظبية خدرها وعطر السوسن والسامر المجروح .

والرمل مزاجيّ متقلّب، يَملّ الثبات مثل صدر اللعوب، يشبه الكابوس وفسحة اليأس، أو كأنه وَهْمٌ من وَهْم، تمسكه فينثال من بين أصابعك كالماء الحُرّ، يساجل الواحات، ويتسع للثأر، وسخريته دائمة، تشعّ بالسراب .

لا وجه للرمل ولا فؤاد .

والرمل شاهد إثبات على تحوّل الكرة الأرضية، من مرحلة الغابة، إلى ما هي عليه الآن، من يباب وأخاديد عذاب. يدفن تحته قارّات من الأشجار والأعمار، اختزنها تحت أقدامه، حتى تخمّرت فأصبحت سائلاً هائلاً، يعيد تشكيل سطح الأرض من جديد .

الرمل، باختصار، مُخادع، فقير ويائس . تَذرْذرَ لفرط وحدته، وجفاف ينبوع دموعه .. فَفَقَد الحياة .

وعلى رمل هذه الصحراء سنقدّ من عُمْرنا سنوات ودموعًا وأحلام يقظة، وسنخرج من دُرّاعتها أكثر صلابة ووهجًا وقوة، كأنها مخرطة أخذت شوائب الشحم واللحم، وصبّت فينا الشمس والقمر والأغاني الصعبة . وسنرى الخيام، بعد عقد من الزمان، كأنها بقايا حلم خفيف، حطّت على أرض رخوة، ثم أخذها باشق عظيم تحت جناحيه، وألقاها في النسيان .

وها نحن نتذكر، كل نأمةٍ ونشيدٍ وقيدٍ ولمعةِ جوعٍ وغضب، حتى

يعلم القادمون كم كانت هذه الفلسطين مُبهظة ونفيسة، وكم كان الاحتلال خارجًا على كل الصفات والنواميس والضمائر .. وكم كان زماننا مشوّهًا .. وعبقريًا .

وعلى رمل هذه الصحراء، لن نرى إلاّ قوافل الحديد. وسنتخيّل كيف أن قافلة، في المغيب، تمرّ أمامنا، فنراها مثل خيال عرائس الأراجوز، تتمايل وسطها الهوادج، ونسمع حُداءها من بعيد، وستقترب القافلة مع الشروق، وتمرق قرب السياج، فتظهر أثواب الجمال وسروج الخيل الضامرة السريعة . وخلفها يخبّ العبيد والحرّاس بجسومهم المشوقة كأنها سهام من حديد، وسنرى الكلاب تهرّ خلف الخفاف وحول الأظلاف، بعصبيتها وبحثها عن اللاّ شيء . وربما نتخيّل عصابة من فرسان الطوارق الملثمين، اتقاء هبوب الرمل على وجوههم، فيتوقفون حال رؤيتنا، ويعجبون لأننا مثل نسائهم، دون لثام! وربما نوقد نارًا وسط الساحة، دون حطب، ليَطرقنا أبناء السبيل، ونهمس لبعضنا حتى نتمّم واجب القِرى والمبيت . بل سيقوم شيخ منّا ويصعد بنظره إلى السماء الشاسعة المكشوفة، ويشير بعصاه إلى طرق الصحراء، الموصولة من نجمٍ إلى أخيه .. وقد نتقمّص أجدادنا البعيدين، الذين أتوا بنا من كوكبهم الرمليّ، وثاراتهم القبيحة، إلى سواحل بلاد الشام، وأبقوا جيبًا صحراويًا هو صحراء النقب، قريبًا من بيوتنا حتى لا ننسى جذرنا الأول؛ الجزيرة العربية .. لكننا، وفي كل الأحوال، سنرى حبّات الرمل المفككة، والمتفرّدة المنفصلة عن باقي الحبيبات، وسندرك

www.alkottob.com

خسارة هذا التفكك، ونعى حيوية أن نتماسك، وأن لا نشبه الرمل،
بل نكون سبيكة ذهبية، عزيزة على التشظّى والانفراط .

* * *

لقد كانت انتفاضة كاملة !

اليوم، يكون قد مرّ على انفجارها العبقرى أكثر من اثنتى عشرة سنة، وها نحن نشهد، اليوم، ميلاد انتفاضة جديدة، اسمها انتفاضة الأقصى أو الاستقلال .. لا فرق . والشىء بالشىء يُذكر .

تلك انتفاضة كاملة !

كان الفهد خارجًا بكامل سخونته، من الغابة البكْر، يحمل قلب الريح، كأنه عاهل العاصفة، كان ريّانًا، مُشْبَعًا بغضب الأشجار التى ماتت واقفة، ولم تركع ! وكان صمته قِطَعًا من غضب الليل الذى كَنَس البساطير الثقيلة من ليل المدن والقرى، وجعل يقظة الخوف أبديةً فى حدقات الخونة والجنود .

تلك كانت انتفاضة . أما انتفاضة هذا العام فإنها سبعٌ روّضته البيوت، وأطلقته على الدخلاء. أما تلك فكانت فهدًا بريًّا، له أناقة

www.alkottob.com

البرق وإغواء الغزال .

هذه صوت الرأس، أما تلك فكانت شعلة الجسد كلّه.

تلك كانت زفّة واحدة أو جنازة واحدة، أو بالأحرى كانتا متداخلتين إلى درجة اختلاط الدمع بالحبق، وملوحة عرق الأعراف بعسل شهد الفرس .

تلك كانت صيحة إسرافيل الفلسطينى، الذى أيقظ الحجر والشجر والطير والينبوع، أما هذه فصحوة الجسد من خَدَر العملية الجراحية الفاشلة .

تلك كانت غيث كانون الواضح، أما هذه فهى تردد الغيمة فى عباءة العاصفة.

تلك كانت البداهة والبديهة، أما هذه فإنها صنعة الثوب الكنعانى المطرّز .

تلك كانت الدخول الحاسم إلى بهاء الموت برضى كامل، أما هذه فالحسابات تزاحم المشهد الذى يشدّك إلى أن تغسل الأرض، كل الأرض بوريدك الكريم .

تلك تاج المليحات، وأم الحكايات، وقصّة الراوى الذى لن تنتهى لياليه . أما هذه فهى مسرحية الكاتب المسلّح الناضج، الذى تقلّب على سفّود الجمر، وما فتئت تأكل كبده ليل نهار.

تلك لحم التفاحة الأحلى، وليلة الدخلة التى لن ننسى لذعة السوسن فيها، أو حُرقة عجين ورقة الليمون، وصخب أغنيات الأهل الفرحين، أما هذه فهى زواج الوردة للمدى الدامى، فى فضاء قاعة

المدعوين والشهود .

تلك شهوة الزيت، وانفعال الشفتين، ورضى الزوجات عن الغياب المليء بالدوالى والرسوخ. أما هذه فإنها البهجة بالموت العالى، والفجيعة باللوعة المجانيّة .. أحيانًا .

وتلك مقابسات ليالى القبر التى أشرقت بالجنين الرسولى، أما هذه فهى نهضةُ الفتى لتكتمل دروسه، وتصحو مداركه .

* * *

يغيب الآن الموسم كله، بإرهاصاته، وحلقاته وأسواقه وتجمعاته ! وتحضر هندسة الحرب، لتبعدنا أكثر عن فِطرة ما كان فى ذلك الموسم من حالات وحكايات . كأن الناس كانوا فى موسم قطف الزيتون، أو بناء معبد كبير، أو كأنما يريدون تحويل نهر عظيم عن مجراه، أو إزاحة البحر إلى الوراء .. لهذا لم يتأخّر أحد ! كان الرجال أطفالاً وشبانًا وشيوخًا فى الحقل أو البرّ، وكانت النساء يكملن أعمالهن فى البيت دون توقّف !

ولعل التاريخ لم يشهد حالة انشغال دائبة مثل التى كانت، أيام تلك الانتفاضة الكبرى – ولا أقول الأولى – هذه الانتفاضة قيّدت الكثير من الناس، واقتصر فعلها على جيل محدد، يتمتع بلياقة رمى الحجارة واستعمال المقلاع، أو على المُدَرّبين جيداً على استخدام السلاح والرشاشات، ما جعل الكثيرين، وبالتحديد القاطنين فى المدن المحررة "المناطق أ" ، يبحثون عن دور مباشر لهم فى هذه الانتفاضة، فلا يجدونه ! مما جعل الكثيرين يرزحون تحت وطأة

www.alkottob.com

ضميرهم وسؤاله القاسى الممض، وهم يرون الشبان الصغار يبتلعون أدوارهم، ويتربعون على عرش المشهد السخىّ الجرىء .

كما أن المرأة تراجع دورها كثيراً، ولم تهيئ لها هذه الانتفاضة ذلك الدور الواسع العملاق الذى وفّرته لها تلك الانتفاضة، حيث حلّت المرأة مكان زوجها الذى اعتقلوه، فأصبحت أماً وأبًا، وعمّق حضورها ذلك الدور الاجتماعى المشرّف الذى ظهر فى تشييع الجنازات التى طالما انتهت باشتباك طاحن مع جنود الاحتلال، وفى عيادة الجرحى، ومواساة العائلات الثكلى، وزراعة المساكب والخضراوات، وتطوير الاقتصاد البيتى ..

ولم نسمع أحداً يسأل عن مصير أُسرته، وهو فى حمأة الزنازين، أو فى عين المتراس الحمراء .. ولم يخلع الناس – آنذاك – التطهريّة التى تليق بالأولياء والفلاحين البعيدين .. ولم يسقط رجل فى إغراء المقارنة بين الطبقة المستريحة الحريرية، التى تشكلت فى السنوات الأخيرة، و أحوال الدهماء أو الرعاع –هكذا يسميّهم البعض–، وينظر إليهم على أنهم ليسوا أكثر من حطب، يصلح للاشتعال تحت طنجرة السياسة حتى تنضج، وبالتالى لا يأكل منها إلاّ الطبّاخون المعلمون، أو المَهَرة .

وفى تلك الأيام، كان الانضباط أعلى، فى السنوات الثلاث الأولى، وكان جدار الانتفاضة صلبًا، لم تخترقه الأصابع الخفية المدسوسة، أو الشائعات السوداء . وكان الاستنفار كاملاً، ولهفة الناس حاسمة، حيث نكشوا حواكير بيوتهم وزرعوها، ورموا

المنتجات الإسرائيلية، وكانوا أكثر قناعة بالتقشف الحقيقى الذى فاق زهد الرهبان فى الجبال الجرداء، ولم تكن –حينها– تلك المجموعة التى تدبّ الآن بين الناس، تشدّها مصلحتها –بصفتها كمبرادور يستورد البضائع الإسرائيلية، أو وكلاء لكبرى شركات الدولة العبرية– أو يدفعها طموحها الأجوف –بصفتها، كما ترى نفسها، مؤهلة لوراثة الحكم، أو من أولى الأمر الذين يجب أن يصنعوا القرارات المصيرية للشعب والقضية– .

وفى تلك السنوات، كانت عبقرية الانتفاضة تتمثل فى تحييد أسلحة الاحتلال الثقيلة، باعتمادها على الحجر والمولوتوف، كما تتمثل – أيضًا – بالالتزام الحديدى والدقيق بالقرارات التى كانت تصدرها القيادة الوطنية الموحدة عبر بياناتها آنذاك .

أيام الانتفاضة الكبرى كان لها لون واحد هو الأبيض الذى يسعى للانتصار على الأسود بكل مكوناته ومصادره . ولم يدخل الرماد إلاّ بعد ثلاث سنوات أو أكثر، من بدء ذلك الانفجار العبقرى الواسع والعميق .

فى تلك الأيام، كانت روح الجندى المجهول تمور فى ضلوع كل الناس، فكان التكاتف والتكامل والتكافل قد وصل إلى أقصى صوره ودرجاته، إلى حدّ أستطيع أن أقول – دون مبالغة – : إن المليونين ونصف المليون فلسطينى فى الضفة والقطاع كانوا أُسرة واحدة، فالأب للجميع، والأم والدة كل الأبناء والبنات، والأولاد أشقاء نزلوا من مجرى واحد وعسيلة واحدة، يتشابهون إلى حدّ التوأمة،

www.alkottob.com

ويتسامحون إلى أن أصبح الإيثار لغة منحوتة، لا يغلبها قولٌ مشبوه أو صراخ حاسد .

تلك الانتفاضة غسلت الجسد الواحد، من كل أدرانه وشوائبه، بعد أن صهرته فى مرجل هائل، وسكبته لامعًا مضيئًا، لا طريق له إلا الأمام، بعد أن أحرقت، هنا وهناك، تلك الجيوب المُعيبة؛ سواء أكانت بؤرة للمخدرات، أم السقوط الأخلاقى، أم علبة لليل القاصف، أم بقعة كريهة متصلة بالاحتلال، أم الشقاوة المريبة.

تلك كانت التاج الذى أكمل حجارته المسحورة، والعُرسَ الذى اكتمل إلى حدّ المعجزة، والحجر الخرافى الذى حكّ هواء الفولاذ، فدبّت النار فى هشيم الدنيا، وفهقت السماء بنجومها، فغاب الليلُ .. إلاّ قليلاً .. بانتظار الشروق الكبير .

* * *

لم تذكر رقمى تلك "الشحرورة" السمراء! فانتبه المعتقلون، فى كل الأقسام، إلى البنطال الكاكى المحشور بلحمها وهى عائدة، تحمل أوراق الإفراج عن عددٍ من المعتقلين. وليس غريبًا، ربما، أن ينتبه المعتقلون والأسرى، إلى مفاتنها المتواضعة، وهى قادمة، تخبّ، نحو بوابات الأقسام، لتنادى على "الأرقام" التى سيتم الإفراج عنها.

والشحرورة هذه، امرأة قصيرة مكتنزة سمراء، لعلها من جذر يمنىّ أو من الفلاشا الذين وجدوا أنفسهم على تلال "يهودا والسامرة" فأصبحوا بشرًا! ولقد أطلق المعتقلون اسم "شحرورة" عليها لأنها تُشحرر المعتقلين. واللفظة آتية من كلمة "شحرور" العبرية، ومعناها حرية أو إفراج أو إطلاق سراح!

ولعل إدارة المعتقل وضعت هذه الشحرورة مرسالاً "يُبشّر"

www.alkottob.com

السجناء، بعد طول اعتقال، بفرج العودة إلى المرأة والبيت، أو بالأحرى لتكون مصيدة للقليلين من ضعاف النفوس المكبوتين الذين يرون فيها كل الأنوثة والدلال!

ولطالما مشت الشحرورة بين أقسام معتقل "أنصار ٣"، أو ما يُسميه الإسرائيليون "كتسيعوت"، حيث كان كتسيعوت هذا مبنىً متواضعًا بناه البريطانيون أيام انتدابهم لفلسطين، ليكون مركزاً يشرف على الحدود الفلسطينية المصرية، واستلمه الإسرائيليون، فجعلوه ساحة إعدام للجنود المصريين الأسرى عام ١٩٥٦، وعام نكسة ١٩٦٧، وعندها كان اسمه "كيلى شيفع" أو السجن السابع. وثمة رأى يقول «إن أصل هذا المعتقل يعود إلى أيام الإمبراطورية العثمانية، حيث أقام الأتراك مركزاً لحماية القوافل المتجهة من مصر إلى بلاد الشام، وكان هذا المركز يدعى "نقطة الحفرة" أو "مركز الجورة" أو "سجن الحفرة" أو ما إلى ذلك.

* * *

التاريخ يعيد نفسه، بشكل مُكْلِف، على مَنْ لا يقرأه، أما هنا فى "أنصار ٣"، فالتاريخ ثيّب، جربناه وطلّقناه، وحاول أن يعود بِكْرًا، حتى ننزف من جديد، أو نسوق أغنامنا فى جبال الضبع، كأننا رعاة عميان!! ومهما يكن من اختلاف، فالسجن سجن، الهدف واحد والحوذىّ السادىّ لم يتغيّر، والنهر لم يبدّل ماءه، بل إن السابح لم يخلع ثوبه كالأفاعى، ومع ذلك، لتَلْهُ الأيام كما شاءت بالدُمى التى تقطّعها فى العتمة، بالمقصّ، فتخرج فى النهاية ناقصة ذراعًا أو ساقًا

.. لا بأس، فنحن لسنا دُمْية، وحتى لو اعتبرونا كذلك، فإن لهذه الدُمْية رأسًا، على الأقل، وشفتين حمراوين، كما يقول شارلز سيميك.

* * *

فى آذار ١٩٨٨، ومع ازدياد أعداد المعتقلين الفلسطينيين إثر تفجّر الانتفاضة، اضطرت الدولة العبرية لبناء سجون جديدة على شاكلة معتقلات النازية، فالفكر الشوفينى يعيد نفسه دائمًا، وكأن التاريخ يفقد دوره وحكمته لدى سدنة هذا الفكر، وتبدو العنصرية فى التاريخ خارج حدود القيمة الروحية أو الأخلاقية، وتدخل حدود المرض الذى له أعراض معينة ومدونة، منها استعمالها المفرط والعصبى لكل أنواع القوة وغرورها وأشكالها، فهى سرعان ما تقتل وتقمع وتبنى السجون ومراكز الاعتقال والتعذيب، فمهّدت الرمال المحيطة بـ"السجن السابع"، وضربت اثنتى عشرة خيمة فى كل قسم، ستًا مقابل ست، وبينهما مساحة تمتد إلى عشرين متراً. وكل قسم محاط بثلاثة جدران من السياج الشائكة، تفصل مسافة متر أو أكثر بين كل سياج وسياج، حيث يرتفع السياج أكثر من عشرة أمتار، والأسيجة متقاربة ومتراصّة فى الجدار الواحد، حتى إن طيراً قد لا يستطيع الدخول من بين السلك وأخيه! ودفعت إدارة السجن إلى كل قسم مئتين وأربعين معتقلاً، موزعين بالتساوى على الخيمات الاثنتى عشرة، ليصبح نصيب كل خيمة عشرين سجيناً، يحمل كل منهم أربع بطّانيات وقطعة جلد بحجم الإنسان تسمى

www.alkottob.com

"البُرش" يفرشها السجين تحت بطّانية هى فرشته، وبطّانية أُخرى يجعلها وسادة، وتبقى بطانيتان، هما غطاء المعتقل فى ليل وشتاء الصحراء القارس الذى "يقصّ" المسمار!

وقد جعلت إدارة "كتسيعوت" ستة أقسام فى كل وحدة أو مجموعة، حيث ترى شارعًا رمليًا بعرض خمسة أمتار بين كل قسم وقسم، أى أن كل مجموعة أو وحدة تحتوى على ألف وخمسمئة معتقل ... وبالطبع، كان هناك خمس وحدات هى كل "أنصار ٣" أو "كتسيعوت"، أو ما يزيد على سبعة آلاف وخمسمئة معتقل.

ولّما أدركت إسرائيل أن الانتفاضة ستستمر، وأن "حبالها طوال" راحت تُكرّس هذا المعتقل، وتحيله سجنًا مركزيًا، فأمرت بتعبيد أرضية الأقسام والشوارع التى تحيط بها، وأبدلت الحفرة العميقة المحاطة بألواح زنك، وأرضيتها ألواح خشبية، فى وسطها فتحات، هى المراحيض ... راحت تبنى حفراً أسمنتية جعلتها مراحيض وحمامات للسجناء.. وظل المعتقلون الداخلون، لقضاء حاجاتهم، يرون بحر الوسخ المترجرج المقرف الذى ينداح تحتهم، وتصلهم طراطيشه، بين الحين والآخر.

* * *

ما أن تضع قدميك على العوارض الخشبية، وتبدأ بفكّ أزرار بنطالك، لتقرفص فوق الفتحة الواسعة، لتقضى حاجتك .. ويخرج من باب بدنك ما اختزن فى أمعائك من طعام تافه، حتى يبدأ خيالك يذهب بك إلى سيناريو الوقوع فى المستنقع المضطرب الذى يموج

تحتك ... يا إلهى!!

تخيّل لو زحلقت أو زلّت قدمك، وسقطتَ إلى الأسفل؟!!

ماذا سيكون مصيرك؟

الموت فى حفرة المجارى!؟

أية ميتَة هذه ؟!

انتبه، إذًا! وثبّت قدميك، وانتبه وأنت تشطف بإبريق الماء قحفتك المسموطة ..

تخرج من المرحاض، وبقعة الماء بادية على مؤخرة بنطالك .. وتسرع إلى ماسورة الماء وقطعة الصابون تفركها، وتغسل يديك .. وتنفضهما فى الهواء، أو تمررهما على جنبات قميصك، وتحمد الله أنك لم تمت، حتى الآن، فى تلك الحفرة المهولة!

ولكن، مَنْ يدرى ما الذى سيجرى فى المرّة القادمة؟

* * *

(حالما بدأ "سوان" فى التعرّف على "أوديت"، بدأ يشك فيها)، وأنتِ أيتها الصحراء! منذ أن وصلناك، هاجمتنا الكآبة مثل كلبة مجنونة، تقف أمامنا، تغلق الطريق بلهاثها المبلول الأحمر، فنرجع للوراء قليلاً، حتى نتحفّز، ونجد طريقًا آخر بعيداً عن نشيجها المسعور، أو نمدّ ذراعنا فى فمها، حتى نقبض قلبها الحامض، وفى الحالتين يراودنا إحساس بأننا فى الفراغ، خارج الزمان والمكان.

* * *

www.alkottob.com

هذه هى المرة الثالثة التى أُساق فيها إلى "كتسيعوت". كان ذلك فى صيف ١٩٨٩، حيث قضيت عامًا كاملاً قبل ذلك، امتد حتى ربيع ١٩٨٩، حين جاءت الشحرورة، ورطنت برقمى ضمن أرقام المُفرج عنهم.

والآن، أنا فى معسكر الظاهرية المُرعب، قضيت فيه، هذه المرّة، عشرة أيام، لم أغسل فيها يدى أو وجهى، ولم أتناول خلالها سوى خبز "الفينو" والماء، وبعض حبّات من الرزّ، فالغرفة التى كنتُ فيها مع ثلاثين فتىً ورجلاً، لم تكن تتسع لأكثر من خمسة عشر، وكان علينا أن نقضى حاجتنا، فى برميل بلاستيكى يطفح بالوسخ، ويترنح أحيانًا تحت مَنْ يجلس فوق فوهته المقززة... فينقلب، وكثيرًا ما انقلب، فتمتلئ الغرفة والبطانيّات بالوسخ والفضلات

www.alkottob.com

والنتن الخانق، لهذا، كُنّا نُفضّل ألاّ نأكل، وأن نشرب ماءً كثيراً، وتحوّل الاغتسال إلى رفاهية حالة لاستحالة ذلك، ولعدم وجود صابون أو شامبو !!

* * *

للغرفة، فى معتقل الظاهرية، بابٌ حديدى مُغطى بصفيح حديدى سميك، حتى لا تكاد ذرّة الهواء تدخل إلى الغرفة ! لكن هذا الباب عبارة عن جرس تنبيه، يذكّرنا بقدوم الجنود إلى الغرفة واقتحامها، إذ لم يتخلَّ الجنود عن عاداتهم القبيحة، والتى كان من ضمنها أن يركلوا الباب الحديد ببساطيرهم، فيُحدث إيقاعاً خَشناً، أو فرقعة مدويّة .. تبعًا للركْلَة ! وعندها علينا، نحن المعتقلين الثلاثين، أن نقف فور سماع الركْلة، ونوجّه وجوهنا للحائط، ونرفع أيدينا إلى الأعلى، دون أن ننبس ببنت شفه !

وعندما ينشقّ الباب، ونرى جناح النهار، علينا أن نقول بصوت جماعى واحد "موخانيم يا كابتن" .. فيقوم الجنود بإحصائنا، والتأكد من أن أحداً لم يهرب !!. وقبل أن ينصرفوا وينغلق الباب، لا بُدّ من صفعة هنا أو ركلة تحت الظهر هناك، أو بصقة أو شتيمة..

يتنفسّ المعتقلون الصعداء ! ويحمدون الله أنهم ما زالوا "موخانيم"، أى "جاهزين" ؛ للعدّ والإحصاء، ورفع الأيدى والتوجّه إلى الجدار، وقَوْل "نَعمَ" بعد ذكر رقم السجين، وسبّ كل شيء..

وكان يمكن لهذا الموقف أن يكون عاديًا جداً، السجانون يعدّوننا لدواعٍ أمنية، ولكنى أعترف هنا أن ذلك لم يكن كذلك، لم يكن

يتم بهذه الصورة الروتينية العادية .

كان الموقف فيه تعمد الإذلال والإهانة، كان يقصد من صياحنا الجماعى أن نتحول إلى قطيع لا يعرف سوى أننا "موخانيم" .

"موخانيم" لكل شيء،

لركلة غير متوقعة،

لعصا من هذا الجندى أو ذاك؟

لرصاصة حاقدة،

لسخرية من مجندة "بنت هوى" دخلت مع ضابط الساحة المكلّف بعدّنا؟

كان هذا الموقف يملأنى بالحقد الأسود والأعمى، والجنون الذى يمنعنى من فتح فمى والصياح "موخانيم يا كابتن" ..

ودفعنى الجنون ذات مرة إلى القول للضابط ".. .. أُختك يا كابتن"، وحمدت الله أن الكابتن لم يسمع .. وإلا لفعل بنا الأفاعيل..

كان الزملاء يصيحون "موخانيم يا كابتن" فيتفطّر قلبى .

* * *

نادى الجنود علينا عصر ذلك اليوم، وخرجنا من الغرفة، وللحظة الأولى، لم نستطع أن نرى شيئًا، لأننا لم نر الشمس طيلة تلك الفترة، وبعد حين وقفنا ؛ بعضنا خلف بعض، وكنّا أكثر من مئة سجين، نادوا علينا كأرقام، والويل، كل الويل، لمن نسى اسمه الذى هو رقم وأعداد، -والغريب أن لكل رقم معادلة تكتشفها مع

www.alkottob.com

الوقت، أو سِرًّا له دلالة ما!

وبعد ساعتين، ربطوا كل اثنين بكلبشة واحدة، اليد اليمنى لسجين مع اليد اليسرى لسجين آخر... وزجّوا بنا فى موقف سيارات مُغطى بالزنك، وكان علينا أن نظل واقفين حتى تحضر الحافلات، وتنقلنا معصوبى العيون مقيدين إلى مصيرنا المحتوم ... إلى "أنصار ٣". وبقينا ننتظر حتى صباح اليوم التالى! فهل أخبركم كيف أمضينا تلك الليلة واقفين مثل الأفيال أو الأشجار؟ .. والجنود النزقون يحيطون بنا، وينتظرون مَنْ سيقع منا، ليتسلّوا عليه ضربًا ولطمًا وركلات فى كل مكان!!

صعدنا إلى الحافلات، وكان زميلى فى الكلبشة الأخ "نبهان خريشة" الذى تيسّر لى أن أتعرّف إليه منذ ثلاثة عشر عامًا، أيام كنّا طلابًا فى جامعة بيرزيت .. وكان - بحق- جسورًا، ومعنوياته عالية، مما أدخل الطمأنينة والبهجة إلى ضلوعى.

صعدنا إلى الباص، وأَجْلسَنا الجنودُ على المقاعد، وراحوا يعصبون أعيننا بشرائط من القماش الكاكى السميك، حتى لا نرى أو نعرف إلى أين نمضى؛ جزء لا يتجزأ من الحرب النفسية لهدم معنويات المعتقلين. وعندما اكتمل الجلوس، راحوا ينادون على أرقامنا التى هى أسماؤنا، ونجيب بـ"موجود" ... وتتحرك الحافلة، وتصل إلى مشارف "كيلى شيفع" عصرًا!

لقد مرّ يوم كامل دون أكل أو نوم. لا بأس ... وتدخل الحافلة إلى باحة رملية تنتهى بـ"كرفان" أو غرفة جاهزة، يجلس فيها ضابط

ومعه، طبعًا، الشحرورة تلك، وطبيب، وعشرات الجنود يحيطون بالباحة. ويأمرنا الجنود أن نهبط من الحافلة، بعد أن يزيحوا العصبة عن العيون، فنهبط مثلما صعدنا.. ونصطف طوابير بعضنا خلف بعض، فيقرأون علينا، ثانية، أسماءنا الرقمية، ونقول "موجود" ثم يفكّون الكلبشات، ويتقدم كل واحد منّا بمفرده نحو الطبيب الذى يسألنا إن كان يُعانى من مرض أو مصيبة.. والجواب، طبعًا لا يهم الطبيب؛ فعنده جواب واحد هو المقبول وهو"لا يوجد به مرض!"

ثم نمضى خلف "الكرفان"، واحدًا واحدًا، ونخلع كل شىء عدا الملابس الداخلية، ويعطوننا قميصًا برتقالى اللون وبنطالاً كحليًا باهتًا، دون أن ينتبه الجندى إلى حجم السجين ونُمرة لباسه.. (فهناك فى الأقسام بدّلوا فيما بينكم)، يقول الجندى. حسنًا أيّها الجندى. ثم نتجه صوب الشحرورة التى تجلس خلف طاولة خشبية متهالكة، وتقول كلمتها المعهودة: اقعد على طيزك يا خيوان!! فنقعد على أقفيتنا مقرفصين، ومنظرنا يدعو للضحك المبكى، فكيف لواحد مثلى يلبس نُمرة خمسين، يتسلّم ويلبس بنطالاً نمرته أربعون، وعلىّ طبعًا أن ألبسه.. حتى لو أدخلت ساقىّ فيه بالقوة... وبقى الجذع فالتًا دون غطاء!!

نقعد على "قفانا" كما أمرت الشحرورة، وتسألنا عدة أسئلة: اسمك؟ عمرك؟ بلدك؟ هل سجنت قبل الآن؟ أين؟ ثم تعطيك رقمًا جديدًا هو اسمك الجديد فى "كتسيعوت"... وبعد أن ينهى المئة معتقل هذه الإجراءات يكون الليل قد امتد إلى نصفه.. فيأخذنا

www.alkottob.com

الجنود طابوراً واحداً، أيادينا خارج جيوبنا، ممنوعين من الكلام أو حتى النحنحة.. ويوزعوننا على الأقسام، ليتسلّمنا جنود آخرون، يسوقوننا خلف بعضنا، كلٌ فى قسمه... وبالطبع، مرّ وقت توزيع العشاء .. وعلينا أن ننتظر وجبة الفطور عدة ساعات أُخرى.

يستقبلنا المعتقلون، فمَنْ كان نزيلاً، هنا، قبل اليوم فإن الزفّة تكون من نصيبه، وأما مَنْ يدخل "أنصار ٣" أول مرة، فثمة لجنة وطنية فى كل قسم تتعهد الإخوة والرفاق الجدد؛ توزّعهم على الخيام حسب أعمارهم وانتمائهم السياسى والجغرافى ومستواهم التعليمى والثقافى، حيث تتم مراعاة التوازن فى التوزيع، ويجلسونهم فى حلقة، ويتولّى مسؤول اللجنة شرح الوضع وكيفية الحياة فى هذا المعتقل، بما يُدخل الطمأنينة والثبات فى قلوب الوافدين.

* * *

هنا تتكرّس بشخصياتك الثلاث! لكن، يجب أن تحذر، فإن وجودك أربعًا وعشرين ساعة طيلة اليوم، فى حيّز محدود، فيما ستضطر لأنْ تمارس كل أشيائك .. سيعنى أن جانبًا من شخصيتك الأولى ستنكشف، وسيراك الآخرون، مثلما تراهم، نصف عراة، كمقدمة لُعرْى يوم القيامة القادم!

شخصيتك الأولى هى أنتَ كما أنتَ، كما ترى نفسك وحدك أمام المرآة، أو المرأة التى أطلت الحياة معها، أو كما ولدتك المرأة الأُم!

ولكى تُغطى ثغرات الأولى، عليك أن تلبس قناعك المُهذّب

الأنيق .. لتصبح مقبولاً..! والقناع إما إسقاط أو تبرير أو كل آليات التعويض أو الارتكاس أو...

أما ما تصبو إليه، وما ترغب أن تكونه، لتتطابق مع النموذج المثالى، فهو شهوتك الدائمة، ورغبتك الباقية.. وهى شخصيتك الثالثة.

وبقدر ما تتخلص من قناعك، وتعيش بشخصيتك الأولى، بقدر ما تكون صادقًا ومعافىً وحقيقيًا .. لكننا يا صديقى، مضطرون لأنْ نكون بعضنا مرايا بعض .. فلا بأس!!

.. لهذا يقولون إن السَفَر أو السجن يُعرّف الناس بعضهم ببعض، ويكشف المعادن!! والحقيقة الأكيدة هى أننا عرفنا بعضنا جيداً، وتم فرزنا جيداً .. فشكراً لغربال السجن هذا، وسحقًا له .. أيضًا.

* * *

يا شماتة الأصحاب! ما إن رأونى أحمل بطانيّاتى، وأطلّ برأسى.. حتى تنادوا.. وقالوا: رجع المتوكلّ... هيه... ويصطف الأصدقاء والمعارف خلف السياج "الشيك"... كأنّهم يستقبلوننى، ضاحكين، مازحين، شاكرين الله أن أعادنى إليهم!! وبالطبع يسأل أحدهم عن "الوضع" خارج السجن، وآخر يسأل عن "البلد" وآخر عن "فلان"... إلخ، لكننى بالتأكيد أكتفى بهزّ رأسى، ضاحكًا دون صوت... حتى لا أمضى الليلة فى الزنزانة عقابًا على "كلامى" معهم!

* * *

www.alkottob.com

يريدنا الاحتلال الإسرائيلى، أن نصبح جزءاً من هذه الصحراء، إحدى فسيفساء التوحّش فيها، ولو كنتُ وحدى فى هذه الصحراء، فربما أصير ذئبًا يطأ الحنظل والعوسج، ويضرب بمخالبه جحور الضبّ، وتتهدل أكتافه، وتزهر عيونه كالمواقد، ويبدأ أنفه، بخنفرته الخشنة، يشمشم آثار الرمم، وبول البقر الوحشى.

لكننى لستُ وحدى، لأن هذا الحراك البشرى يُكرّس آدميتى ويبقينى بشراً، رغم مصارعة هذا التنّين الذى له ألف رأس من الرمل والرصاص والسياج .. تُطالعنا أنّى تحركنا أو غفونا أو أكلنا، وتظل الكلمة والصرخة فزّاعتين تُبعدان الوحش الذى يضرب رؤوسه فى بعضها، فتُحدث زلزالاً مُريبًا، يوقظ وحوشًا جديدة، تُخرج رؤوسها من تحت الرمال.. وتحاول أن تحاصرنا، فنصرخ.. لنظل بشراً، نطأ الأرض المُمهّدة، ونغفو على زهرة سوسن، تتراءى لنا من بين الرؤوس .

* * *

تستيقظ مرهقًا، كأن تعب الزمان كلّه حلّ فى بدنك، تقوم متثاقلاً، تغسل وجهك كأنك تصفعه بالماء البارد .. وتجلس بلا مبالاة على الأرض، دون اكتراث، ولا تنظر لشىء .. كأنك وحيدٌ على قمة هرم من الغبار اللامتناهى .. ويمضى الجنود، ويجىء الفطور .. فلا تأكل ! ثمة حجر خشن يسدّ بلعومك ! تنهض، بعد أن تبلّ جرعةُ شاى جفافَ فمك، وتشعل سيجارة "أُسكت" .. وتمضى إلى الخيمة، تعيد فرْش البطانيات، وتسقط على وجهك فى نوبة

بكاء، تحاول أن تخفيه، بأن تغمر وجهك فى البطانيّة الوسادة، حتى يدخل أحد الأصدقاء، ويسمع نهنهة صدرك، واضطراب رأسك المهتزّ .. يقترب منك.. ويمسّد شعرك، فتنهض، محاولاً إخفاء وجهك، وبكُمّ قميصك تمسح دموعك .. فيشعل لك سيجارة ويعطيك إياها .. ويسود صمت كاوٍ ..

تحاول أن تنظر إلى عينيه، فتجد ماءً زجاجيًا يبرق فيهما..

– لماذا نعود إلى هذا المعتقل ؟

الظُلْم ثقيل .. ثقيل .. ثقيل ..

* * *

فى أيار من العام الماضى أى عام ١٩٨٨ ، كنتُ قد خرجت من فترة "التحقيق المركزى" فى أقسام المخابرات فى طولكرم ونابلس، وكان طبيعيًا أن تنمو لحيتى وشعرى وأظفارى، وأنا فى "الخزانة" و"الإكس" مدة ثمانية وسبعين يومًا، ابتدأت من نهاية شباط حتى مطلع أيار، رأيت فيها ما يدور فى القبر بعد الموت ! بعدها تمّ تحويلى إلى الاعتقال الإدارى، حيث تم نقلى من زنازين سجن نابلس إلى معتقل الفارعة المهول، الذى كان إسطبلاً لخيول الانتداب والجيش الأردنى، ثم أصبح زنازين لخدمة شهوة اليهود الساديّة. فما إن تدخل معتقل الفارعة حتى يتلقاك الجنود بهراواتهم، قبل أن ينزعوا العصبة عن عينيك، وبعد "حفلة الاستقبال" (الضرب مدة ساعة) يتلقّاك الطبيب والجنود، ... يسألونك، ثم يعطونك رقمًا – اسمًا جديداً .... ثم تذهب إلى "ساحة الشبح"، وهى مساحة تقدر بنصف

www.alkottob.com

دونم، يأمرك الجنود، وقد أحكموا الكلبشات حول معصميك، أن تقف آخر الساحة، مقابل جدار أسمنتى، وعليك أن ترفع يديك إلى الأعلى وكذلك إحدى ساقيك .. والويل كل الويل لو أنزلت يدك أو رجلك . فالمسموح هو تبديل الساق بالساق الأخرى فقط ! .. وتبقى مشبوحًا هكذا مدة لا تقل عن يومين كاملين دون طعام أو شراب، والوجبة الدائمة هى اللطم والهراوة، والبُسْطار الذى يُلصقك بالحائط. ولزيادة وجبة العذاب والإهانة، فإنه ليس من المستغرب أن يرمى الحراس فوقك قشر البطيخ أو قاذورات أخرى مختلفة، ولكنك تتوقعها من لزوجتها أو رائحتها الكريهة . ولقد أصبح ذلك الجدار شبيهًا بحائط البراق، غير أن هذا الجدار أكثر قداسة من حائط المبكى الذى سرقوه من البراق، وجعلوه شاهداً على تضرّعهم الكاذب ودموعهم المخاتلة الوقحة... ثم يأخذونك إلى الزنزانة ويزجّونك أنت واثنين آخرين فيها، رغم أن مساحتها، بالضبط، بمقدار القبر. ويتم تسليم كل واحد ثلاث بطّانيات، ويسمح لنا أن نخرج من الزنزانة، إلى الحمّامات يوميًا، لقضاء حاجتنا مدة خمس دقائق بالثانية ! حتى أصبحنا حالة اشتراطيّة نفسية، لا تتحرك أمعاؤنا، ونشعر أننا "سنعملها" إلاّ عندما يطقطق المفتاح فى الباب.. فنتسابق على المراحيض... ونخرج منها للحنفيات، لنغسل أيدينا ووجوهنا، ودون صابون طبعًا، رغم أن المراحيض فيها برابيج مياه لنغسل القحفة بعد الغائط، ولكن من أين لنا الصابون أو ورق التواليت !! ساق الله ... وعلينا، طبعًا، أن

نفرك أيدينا جيداً لننظفها... دون جدوى ... ونضطر لنتناول ربع رغيف الفينو وحبّة البطاطا المسلوقة باليدين ذاتهما... ونضع بأصابعنا اللقمة تلو أختها فى فمنا.. وطبيعى أن يكون هناك "جردل" (دلو بلاستيك) داخل الزنزانة لنقضى حاجتنا الخفيفة فيه ! ولا أُنكر أن بعضنا كان يضطر – إذا أصابه الإسهال – أن "يعملها" فى الجردل ... وطبعًا لا ماء ولا ورق ولا صابون.. بل رائحة فوّاحة !!

* * *

لم يذهب الشتاء تماماً ! ولم يسحب أذياله الرمادية.. وكنّا مشبوحين أمام حائط الصفع، فى ساحة الفارعة .. وجادت السماء بالمطر ..

كان الجنود يلبسون "الأفرهولات" المانعة، كأنهم دببة هجينة داكنة، أمّا نحن فكان لزاماً علينا أن تبقى أيادينا مرفوعة إلى الأعلى، ونقف على رجل واحدة .

وفجأة، أحسستُ يدىّ أنهما غُصنا شجرة، وأننى جذع شجرة منزرعة فى الأرض .. وبعد قليل، ستضرب جذورى أكثر فى عمق الأرض، وستبرعم أصابعى وذراعاى، وستطلق أذناى وأنفى وبُصيلات شعرى ورقًا... وسأصبح مثل الجميّزة الراسخة...

وبدأ النسغ يصّاعد من أخمص قدمى، إلى جبينى وأطراف أصابعى.. وأصبح جلد جسدى سميكًا وأكثر صلابة وخشونة... وها هى كتفى تنفتح ليخرُج غصن جديد، وتنشقّ خاصرتى ليطلع

www.alkottob.com

منها برعم جديد.. وأطلّت الشمس بعد قليل، فعادت الطيور، وحطّت على القضبان الخضراء المتنامية، فيما بقيت عيناى فتحتين أعلى الجذع، تراقبان هذه الشجرة المُمرعة التى كادت تُغطى بجذوعها معظمَ ساحة الشبح ...

بعد منتصف الليل، استيقظتُ فوجدتُ نفسى مُمدّدًا فى زنزانة مع اثنين من المعتقلين ... يسهران على رأسى، وما إن فتحت عينىّ حتى قالا: الحمد لله على السلامة... لقد توقف النزيف .. والجرح فى رأسك غير عميق .. كيف حالك الآن؟

* * *

أذكر ذلك الآن بإلحاح . بعد إحدى عشرة سنة، ذهبت بصحبة العزيز الشاعر غسان زقطان لنحيى أمسية شعرية فى سجن الفارعة الذى أصبح مركزًا شبابيًا، تم تأهيله ليكون مركزًا للنشاطات الرياضية والدورات التثقيفية، ويتبع لوزارة الشباب والرياضة الفلسطينية.

... وعندها طلبت أن تكون الندوة الشعرية فى الساحة، ووقفت، بالضبط، قبالة جدار الشبح والصفع، ولعلها من أكثر الندوات الشعرية المؤثرة، والمشحونة بكل تلك الصرخات والأوجاع... والمحمولة على الضربات التى ما زلت أسمعها، على بوابات "الخزائن" الحجرية! وبعد الندوة ذهبنا فى جولة داخل المعسكر، ورأى أخى غسان زقطان المكان الذى تم حبسنا فيه، والخزائن التى كانت تنطبق مثل القبور على المعتقلين المحشورين فيها.

والخزانة هى غرفة من الباطون المُسلّح، طولها سبعون سنتيمتراً بعرض سبعين سنتيمتراً، ولها باب حديدى سميك، يتم زجّ المعتقل داخلها مقيّداً بالكلبشات، وعلى رأسه كيس خيش كريه، ويظلّ المعتقل واقفًا داخل تلك الخزانة إلى ما شاءت المخابرات ... وقرارات التعذيب.

وتنتشر هذه الخزائن فى كل مراكز التحقيق، وإلى جانبها تقع الإكسات التى هى زنازين صغيرة، وسُميّت بـ"الإكس" للتدليل على شطب مَنْ يدخل إليها.

بعد أيام قليلة من تلك الندوة، كتب غسان زقطان يقول:

«كان المكان يبدو أليفًا بمراته المرتبة وطرقاته المرصوفة، غرف النوم وقاعات الدراسة، نوع الأثاث ... ولون الجدران النظيف، الزهور المسقية حديثًا.. كل شىء كان يوحى بالألفة، حتى أولئك الأطفال الذين يعبرون الشارع الرئيسى قادمين من المخيم ليقفوا على الباب ويحدقوا فى الداخل ... هذا العبور الآمن كان يذهب بنا إلى الألفة التى تعم المكان وأشجاره وطيوره.. هكذا كان "مركز الفارعة"؛ سجن الفارعة سابقًا عندما وصلنا، أخى المتوكل طه وأنا، بناءً على دعوة من أصدقاء.

خلف البناء الدراسى الرئيسى تقع الباحة الكبيرة، وحولها تتوزع صفوف من الإسمنت بأسقف منخفضة:

– هنا غرف التحقيق

– هنا الخزانات

www.alkottob.com

– الخزانة زنزانة ضيقة جداً، أشبه بتابوت يوضع داخله المعتقل...

– هنا ساحة "الشبح"

– هذه هى "الزنازين"

فى الممر الضيق الذى تتوزع على جانبيه زنازين ضيّقة كانت تتردد أسماء المعتقلين، فى حين أحاول أن أقرأ ما لم يتمكن الدهان الجديد من إخفائه ... أسماء وإشارات وتواريخ وشعارات، هنا كانوا، مئات منهم أولئك الذين يتذكرون هذا المركز الهادئ الذى نعبر طرقاته النظيفة ... عندما كان سجناً.

لم أكن هنا، ولكننى أستطيع أن أتذكر سجن الفارعة أيضاً، الذى ارتبط لدى بأخبار قصيرة ومؤلمة وأسماء شعراء وكتّاب وفنانين ومناضلين محترفين حملتهم إليه شاحنات الليل معصوبى العيون والأيدى على مدار سنوات الاحتلال الطويلة تلك.

أفكر، فيما يواصل الأصدقاء ذكرياتهم، أنه كان ينبغى الاحتفاظ بالمكان، أو على الأقل بهذا الجزء منه، كما كان، بصفته شاهداً على بربرية الاحتلال، وعلى صمود أهلنا... متحف للذاكرة... ليست الشفهية التى أسمعها الآن فقط، ولكن تلك الموثّقة والمكتوبة ... حيث لا وقت للنسيان».

* * *

... وللتاريخ، فإننى أمضيت فى الخزانة، فى مركز التحقيق بطولكرم، مدة اثنين وثلاثين يوماً، ليلاً ونهاراً فقط... سبقتها أربعة

أيام أمام العديد من المحققين، دون أن يُسمح لى بالنوم دقيقة واحدة. ثم تمّ زجّى فى "الإكس" حتى الساعة الأخيرة من الأيام الثمانية والسبعين التى أمضيتها متنقلاً بين الجلوس أمام المدفأة، ثم إخراجى شبه عارٍ ومكلبشاً تحت المطر حتى ساعات الصباح، وبين الضغط النفسى، والتجويع والترهيب، أو بين حمّامات منتصف الليل المثلّجة، أو تركى مكلبشاً وكيس الخيش الكريه على رأسى أياماً متوالية، مهملاً.. هكذا، أو منعى من قضاء حاجتى، هذا عدا الشبحْ المتواصل حتى الخدَر أو الشلل!

* * *

يدخل المحقق، وهو مسلّح بشعار واحد، ويظلّ يحفر فى بقعة واحدة، ويحفر لعله يجد شيئاً، ويدخل محقق آخر، ويحمل شعاراً آخر، ويروح يجزّ بمبضعه على نغمة واحدة فى زاوية محددة.. لعله يستخرج شيئاً ما، ويدخل محقق ثالث ورابع وعاشر.. وهم مُتفقون على مجموعة من النقاط، حيث تشكل هذه النقاط دائرة كاملة، يحاولون سلخها... والنفاذ منها إلى قلبك وعقلك.. والسخرية فى الأمر كله أن هؤلاء يعتقدون حقاً أنهم الأذكى والأرفع، وأنك بالنسبة إليهم مجرد فأر تجارب، تنكسر عند نقطة معينة، وتنهار فى مستوى معين من الضغط النفسى أو الجسدى "المعقول" أو غير المعقول، ولوهلة ما تشعر أنهم يطبّقون عليك الأساليب التى يتعلمونها فى التحقيق، ثم، وفى لحظة واحدة، تنكسر هذه القشرة الرقيقة اللامعة، ويظهرون كامل أحقادهم

www.alkottob.com

وعنصريتهم، ويتحولون بعدها إلى ثيران وجواميس وخراتيت لا يفهمون ولا يمارسون سوى القوة، القوة فقط .. عندها تسلمهم جسدك الأعزل الطرى .. تنكمش على نفسك، تخاف قليلاً، ولكنك تعرف أن النجاة قريبة.

لكنك تواجههم بأنهم ليسوا بشراً، بل محترفو تعذيب وإرهاب، وأن ادعاءهم بالحضارة والأناقة ما هو إلاّ قناع، سرعان ما يتهتك، أمام أصغر حقيقة من حقائق وجودنا وحقّنا، فى الحياة مثلهم ... تماماً!

وبشكل مباشر تقول لهم: إن الشبح والتجويع و"دُشّات" الماء البارد والكلبشات... ما هى إلاّ أدوات تحاولون من خلالها قهرنا وإخضاعنا، ولكن عليكم أن تختصروا الوقت، وتطلقوا الرصاص علينا، لإنهاء هذه الملهاة المُرّة التى لن تُفضى إلا إلى تعميق الكراهية..

أما البديل فهو الاعتراف بالحقائق الساطعة، وبأنّ ما تدّعونه من معلومات ما هو إلاّ تخيلات وأكاذيب وأحاجٍ...

وما عليك، أيها السجين، إلاّ أن تبدو أكثر تماسكًا وزهواً بعد كل "حفلة" شبح أو حمّام أو خزانة..

ولا تنسَ أن تُذكّر المحققين بأنهم موظفون، ولهم صورة البشر، وعليهم أن يتصرفوا كالآدميين ... وأن العنف والإذلال له نتيجة واحدة، هى إعادة التأكيد بالكلمات نفسها على مسامعهم .. فعندها سيفقدون أعصابهم.. وستضحك، دون أن يلحظوا ابتسامتك المنتصرة!

بعد أسبوعٍ كامل، تم نقلنا من معتقل الفارعة، وكنّا أقل من عشرين معتقلاً، فى حافلة، معصوبى العيون، والكلبشات تدمى معاصمنا، إلى سجن "عتليت" الواقع بين الطنطورة وحيفا، وصلنا منتصف الليل، وبعد الإجراءات نفسها، أدخلونا إلى غرف السجن الذى ذكّرنى فور رؤيته بسجن عكا القريب، وثورة البراق، والشهداء الذين تسابقوا إلى المشانق فيه .. و"من سجن عكا طلعت جنازة محمد جمجوم وفؤاد حجازى ...وثالثة الأثافى عطا الزير" .

فى سجن عكّا أمضى والدى سبعة أعوام معتقلاً، أيام الجهاد ضد الانتداب والعصابات الصهيونية، والشهود يؤكدون أنه تمّ أسرُه وكان جريحًا عام ١٩٣٢، ليخرج بعين واحدة، ويدٍ تشهد على ثلاث رصاصات، وساق تشهد على شظية شقّت اللحم والعظم!! رحمك الله يا أبى، أيها الشيخ الذى جاء بى إلى هذه الدنيا.. ليرحل عنها، وفمى ينقط باللّعاب...

رحمك الله يا أبى، لقد أورثتنى السجن والقصيدة...

أبى . يا أبى .
يا حنينَ التراب .
– ترابٌ تغنّى قليلاً .. وغابْ –
.. أذكرُ لّما تَكفّنْتَ بالزعفرانِ ودمعِ النساء
بكيتُ، وما كنتُ أعرفُ أنك تمضى
لدرب السرابْ .
وأذكرُ لّما دُفِنْتَ وصلّوا عليكَ،

www.alkottob.com

رجعتُ وفىّ غموضُ اليتيمِ
وحزنُ السحابْ .
وأذكر أنى دُهشْتُ من الموت ..
كنتُ صغيراً، ولم أعرف الفرقَ
بين الجنازات – تمضى إلينا –
وبين الشبابْ .
وأذكرُ لما دخلتُ ..
تفتّقَ دمعُ الأرامل حُزنًا علىّ
وقُلْنَ: تيتّمَ طفلاً ..
وما كنتُ أعرفُ
أن الذى ماتَ شىءٌ بأُمى
فمن يومها لم تَضعْ عطرَها الياسمينَ
ولم تكتحلْ لليالى الملاحِ
وما عَجّنتْ لابنتيها الخِضابْ .
وأذكرُ أنى تحاشيتُ من أن ترانى
ولكنها لطمت وجهها ..
والفجائعُ تخبو وتعلو
بصوت اختناقٍ وصوت انتحابْ .
تَسَمّرْتُ؛ ماذا؟ أأبكى،
أأصمتُ، ماذا سأفعلُ؟
أصرخُ مثل اللواتى مَزَعْنَ الضفائرَ فوق الرؤوسِ

وقددْنَ، فوق الصدورِ، الثيابْ؟
وماذا أقولُ لهذى التى انتظرتهُ طويلاً؛
ومن سجن عكّا أتاها جريحًا
وقد مَزّقتهُ سيوفُ الخيانةِ
والانتدابْ؟.
أبى . يا أبى كنتَ أنتَ الكبير
وكنتُ صغيراً، صغيراً
ولم أعرف الكلماتِ التى
تُطفئ النارَ فى مرجلِ الحزنِ والاضطرابْ .
أبى .
يا أبى لم أُداعبْ يديكَ ...
تصبّ الحنانَ، وطيْبَ العقابْ .
ولم أتعلّق بقمبازِكَ الصوفِ
– لّما تروح هناكَ –
تقول لأُمى: سأرجعُ،
لا تقلقى إن تأخرتُ ليلاً ..
وكانت تنام
وعينان تنظرُ وَقْعَ الرجوعِ
وإغلاقَ بابْ .
ولم تُعطنى يومَ عُدتَ من المسجدِ العُمرى
سوى بضعةٍ من قروشٍ

www.alkottob.com

لأبتاعَ ريحَ المراجيحِ فى العيد ..
لكنّها حين ضاعت .. بكيتُ ..
ولم تلتفتْ لى حين قلتَ :
انطَلِقْ للصحابْ .
ولّما رجعتُ من الصفّ ...
قلتُ : أبى . قد أخذنا دروسًا ..
وإنى حفظتُ دروسى جميعًا ،
فلم تُعطنى بعضَ حلوى ..
وقلتَ : انتبهْ للكتابْ .
ولّما انكببتُ على أُمّ رأسى فى الحوش ..
قلتَ : انتصبْ ! كيف تبكى وأنتَ كبير ؟
وما كنتُ – سامحكَ الله – إلاّ صغيراً
يخافُ الرعودَ ..
ويَنْقُطُ من شفتيهِ اللّعابْ ...
أبى ..

* * *

كانت غرف سجن عتليت ، أقرب ما تكون ، للعقود العتيقة أو البيوت ذات الأقواس الضخمة ، مقسّمة إلى عدة غرف تفصلها قضبان حديدية غليظة وقاسية ... وقديمة .

أمضينا تلك الليلة ، ليحملونا ظهر اليوم الثانى من حيفا ، شمال فلسطين ، إلى "كتسيعوت" جنوب بئر السبع ، فى قلب صحراء

النقب ، على الحدود المصرية !

* * *

يطيرُ بنا التمنّى كأنّه قضاء غامض ، ونحن نرتحل من مكان إلى مكان .

ماذا لو أصابت سائقَ هذه الحافلة سكتةٌ قلبية ، وتدهورت الحافلة فى أحد الوديان .. عندها سيكون هؤلاء الجنود جثثًا هامدة .. أما نحن ، فسنتمكن من الهرب ...

أو .. ماذا لو اجتمعت الدول العربية ، وشنت حربًا كاسحة ضد إسرائيل .. عندها سيتركنا الجنود داخل الحافلة ، وسيهربون ، وستدخل جحافل العرب المنتصرين لتكسر حديد الكلبشات ، ويسقونا الماء .. ويقولوا لنا : الله يعطيكم العافية ..

أو .. ماذا لو استطاع واحد منّا أن يُفْلِت إحدى يديه من الكلبشات ، ويفاجئ الجندى الحارس ، وينقضّ عليه ، ويأخذ سلاحه : عندها سنأخذ الجنود رهائن ، ونحظى بـ "تبادل" يُحرّرنا جميعًا من السجن .

أو ، ماذا لو كان سائق الحافلة عربيًا ، مدسوسًا بين الجنود ، وفجأة يوقف الحافلة ، ويشهر سلاحه المخفىّ فى وجه الجنود .. ويُطلق سراحنا ..

أو .. ماذا لو أبرقت وأرعدت .. وهطل المطر مدراراً .. ونزلت صاعقة على هذه الحافلة .. فحرقتها ، عندها سنتمكن من الإفلات وسط هذا الماء المشتعل الصاخب ..

www.alkottob.com

أو ..

فجأة ! يعلو صوت أحد الجنود، بلغته العربية الثقيلة، وهو يصرخ فى أحد المعتقلين عندما حاول أن يرفع، قليلاً، العصبة عن عينيه، لعلّه يرى إلى أين نمضى.

.. وماذا لو !!

* * *

وصلنا تلك الليلة، من أيار، وكانت الحافلة مكتملة العدد، وبعد أن تعرّفنا على الشحرورة، وجُملتها المشهورة، دخلنا المعتقل الذى لم يكن حينها إلاّ معتقلاً صغيراً مكوّنًا من وحدة واحدة، أو ستة أقسام، تنام على الرمل وتصحو على عقاربه وأفاعيه التى عقصت ثلاثين سجينًا، ولدغت عشرين آخرين. وقتها كان لا بُدّ من أن يجتمع ذوو الخبرة من المعتقلين؛ سجناء سابقون، وطلبة جامعيون، وأعضاء نشيطون فى الفصائل الوطنية، لتنظيم حياة المعتقل... وبدأ بالفعل الترتيب لذلك ... وخلال أسبوع واحدٍ، كان النظام قد تم تعميمه، وتم تشكيل لجان النظافة، والمطبخ، والأمن، والفصائل، واللجنة الوطنية العليا، ولجنة الصندوق والطعام والنشاطات، خصوصًا أن المخضرمين فى المعتقلات قد تم نقلهم جميعًا من سجن جنيد غرب نابلس، إلى معتقل كتسيعوت .

* * *

بعد أن تكاثرت حوادث لدغ الأفاعى عددًا كبيراً من المعتقلين، وأصبح مرأى العقارب مريبًا ومرعبًا، اقترحت لجان الأقسام أن

يسهر، كل ليلة، ثلاثة من المعتقلين، فى كل خيمة، لحراسة السجناء من الأفاعى والعقارب ..

لكن غسان الحرامى "أبو زياد" صاحب النوادر، كانت لديه وجهة نظر أخرى، لها وجاهتها وفتنتها ! وهى أن يقوم الشيخ أحمد بـ "التعزيم" على الأفاعى، وحبسها فى دوائر، ومن ثم "تنظيمها" لصالح المعتقلين، وإعطائها الأوامر لتلدغ الجنود !

– لكن الشيخ أحمد لم يكن حاويًا فى يومٍ من الأيام يا حرامى !

.. وتروق الفكرة لعماد عامر الذى أصبح اسمه فى المعتقل، لوسامته، "شيتا" .. فيحملها، ويبدأ بالترويج لها .. لتصل الفكرة اللمّاحة إلى الشيخ أحمد، فيهشّ ويبشّ، ويبدأ الادعاءَ بأنه يستطيع أن يقيّد الأفاعى ويطرد العقارب الصفراء !!

وكم كانت دهشتنا، عندما كان يقفز الشيخ أحمد فجأة، حاملاً حذاءه، ويقلب إحدى البطانيات ويبدأ طرق حذائه .. فنرى العقرب المتفسّخ بفعل ضربات الشيخ !

.. وبعد أيام قليلة، بدأت لجنة القسم تواجه مشكلة حقيقية، مفادها أن كل المعتقلين، تقريبًا، يريدون أن ينتقلوا إلى النوم فى الخيمة التى ينام فيها الشيخ أحمد ..

بعد أُسبوع تقريبًا، تم نقل الشيخ أحمد إلى عيادة السجن . لقد لدغته أفعى ! ومن فضل الله عليه، أنها كانت "فرخًا" صغيراً .. غير مهلك !

* * *

www.alkottob.com

تصحو مبكراً، فترى شال الغبش ينسلّ برشاقة، ليجلو الطريق فى الأفق، أمام حبال الشمس الطالعة من الشرق، هذا فجر الصحراء .. فما على البدوى النائم، فى ضلوعى، منذ عشرين قرناً، إلاّ أن يصحو الآن، ليرفع ستائر خيمته، لتدخلها مياه الشمس، ويرتّب بطانياته، ويطوى فرشته البلاستيكية، ويركزها مكانها . ويُلقى تحية الصباح على زملاء الخيمة، ويذهب إلى الماسورة التى تقذف ماءها البارد ليَغسل وجهه، ويفرك قطعة الصابون برفق، حتى لا تذوب، لأن إدارة السجن صرفت قطعة صابون صغيرة واحدة، ولمدة أسبوع، لكل خيمة .. لاستعمالها فى غسل اليدين والوجه، والحمّام الأسبوعى .

ومع تمام السادسة صباحًا يكون كل المعتقلين قد افترشوا

www.alkottob.com

الأرض، على شكل أسراب متتالية، ليأتى الضابط وثلة الجنود، لإجراء "العدد" أو إحصاء المعتقلين. وطبيعى أن ينادوا على أرقامنا، لنقول "موجود"، ثم لا نقوم عن الأرض أو نأتى بأية حركة، حتى يخرج الجنود، وينغلق الباب بالمفتاح! لكن عشرات الجنود المنتشرين، فى الطرقات الفاصلة بين كل قسم وآخر، يظلّون على حالهم، متمنطقين أسلحتهم، ومدافع الغاز .. والكلاب تلهث حولهم، تلحمس أيديهم التى تحاول أن تداعبها .

وعلى الساعة السابعة، بالتمام والكمال، يدخل "الشباب" يحملون طناجر الشاى وطعام الإفطار .. ويبدأون بالتوزيع، حيث يبدأون كل وجبة، من عند الخيمة الأولى، ثم يبدأون فى اليوم الثانى، من عند الخيمة الثانية، وهكذا..

أما الإفطار، فهو ملعقة تطلى "مربّى" وثلاث شرائح خبز فينو وأربع حبّات زيتون، وقطعة "مرجرين" زبدة ونصف بيضة . أو يكون حبة بطاطا مسلوقة، وأربع حبّات زيتون، ونصف بيضة و"مرجرين" . أو يكون حبة بطاطا مسلوقة، وأربع حبات زيتون، وحبة بندورة . أو مغرفة فول، مع أربع حبات زيتون وسنتيمتر مكعب من المرجرين .. وطبعًا يحمل كل واحد منا كوب الشاى البلاستيكى، ليدلحوا له من هذا السائل الأسود، الذى لم نشربه ساخنًا، بل فاتر ومزّ، أو شديد المرارة أو التحلية .

بعد الفطور، ينهض ثلاثة معتقلين، من الخيمة الأولى، ويجمعون الكؤوس والصحون البلاستيكية، ويذهبون بها، فى صندوق

بلاستيكى كبير، إلى فتحة ماسورة الماء ليغسلوها! وفى اليوم الثانى ينهض ثلاثة معتقلين آخرون، من الخيمة نفسها لغسل أطباق الغداء، ويليهم ثلاثة آخرون لغسل أطباق العشاء .. وتدور دوائر الغسل على كل المعتقلين، دون استثناء، ويكون ذلك، طبعًا، بإشراف لجنة التنظيف التى غالبًا ما تُصدر أوامرها لَمَنْ غسلوا أطباق الصباح لينظّفوا الساحة من أعقاب السجائر أو بعض ما تطاير من ورق .

مع الساعة العاشرة، تبدأ لجان النشاطات العمل، حيث يتم تقسيم المعتقلين إلى مجموعات . فهذه مجموعة لمحو الأميّة، وتلك مجموعة تعلّم اللغة العبرية، وتلك الإنجليزية، وتلك الفرنسية، وتلك لتعلّم النحو والصرف، وتلك لتحفيظ القرآن وتفسيره، وتلك لقراءة الكرّاسات والكتب التى وضعتها اللجنة لمجموعة ما لقراءتها حتى تتم مناقشتهم بمضامينها بعد أسبوع .. وهكذا .

وعند الساعة الثانية عشرة منتصف النهار، يدخل "الشباب" حاملين طناجر طعام الغداء المكوّن من مغرفة رزّ صغيرة، ومغرفة شوربة بزر مكانس، أو مغرفة شوربة عدس، أو شوربة يخنة بطاطا أو بصل، وثمة نصف حبة برتقال، أو نصف حبة تفاح، أو نصف قرن موز، مرتين أسبوعيًا، يتم توزيعها على المعتقلين!

وحين ينتهى "الإخوان" من الغداء، تبدأ لجنة النظافة الإشراف على غسل الأطباق، وتكليف ثلاثة معتقلين جدد لهذه المهمة، وعند الساعة الواحدة ظهرًا، يرفع أحدهم الآذان لصلاة الظهر ... وهنا مشكلة المشاكل!!؟

www.alkottob.com

فلقد منعت إدارة المعتقل المعتقلين من ممارسة ثلاثة أشياء رئيسة فى ساحة القسم، هى: الصلاة أو رفع الآذان، ثم الرياضة والتجمّع لأكثر من اثنين، ثم الغناء أو إقامة الاحتفالات .

لكن المعتقلين أصروا على رفع الآذان -وعندما سمعت الآذان فى ذلك المكان لأول مرة، شعرت بالصوت العذب والكلام العذب يكسر الحواجز والأسلاك، ويحيل الحصار والصحراء والشمس إلى رياض غنّاء تنضح بالزهر وسلسبيل الماء- فدخل الجنود، واعتقلوا المؤذّن، وزجّوه فى الزنزانة ! فخرج مؤذّن آخر، فاعتقلوه، وخرج مؤذن ثالث .. فاعتقلوا، حتى ثلاثة وعشرين مؤذنًا اعتقلوا فى يوم واحد . وما كان من حنّا الساحورى إلا أن تبرّع برفع الآذان لصلاة الظهر .. ومن يومها أصبح "حنّا" أحسن مؤذن للمسلمين وأشجع مَنْ رفع الآذان !

ولّما اعتقلته إدارة السجن، وقالوا له: أنت مسيحى، فكيف تصلّى صلاة المسلمين؟ قال "حنّا" لهم: تلك كانت معركة بيننا وبينكم، ولم تكن بين المسلمين واليهود . ثم إن رفع الآذان هو واجب وطنى . وفوق كل ذلك: إذا سجنتم كل المسلمين فى الزنازين، فإننى سأرفع الآذان وسأصلّى بدلاً منهم .. وسأبقى على دينى .. ولا تعارض بين هذا وذاك .

أما الصديق المرح فؤاد كوكالى، فقد اعتبر موقف الأخ "حنّا" سابقة يجب الاعتراف بها، والحسبان لها، خاصة أن المسلمين زادوا "صوتًا" فى حين كسب المسيحيون "مسلمًا" إضافيًا . وبالطبع يختتم

كوكالى جملته بضحكة طفل برىء.. لا تنتهى قهقهته، حتى تدمع عيناه، فيستغفر الله، بكل الديانات .

وكالعادة، وضعت إدارة السجن حنّا فى الزنزانة فترة مضاعفة .. وعاقبته ثلاثة أضعاف ما عاقبت به المسلمين .

فى تمام الساعة الثالثة ظهرًا، تُعاد كرّة "العدد"، وربما، بل غالبًا، ما تتركنا إدارة المعتقل جالسين على الأرض اللاهبة مدة وصلت الساعة أو أكثر، حتى "تُشرّفنا" وتحصينا . وبالمناسبة، لقد طلبت إدارة السجن منّا، وقت العدد، أن نضع أيدينا خلف ظهورنا، ونطأطئ رؤوسنا، ونجلس متربعين على الأرض، دون أن يُسمح لنا بافتراش كرتونة أو ثوب أو بطانية .. لكن المعتقلين، وبإصرار، كانوا يضعون أيديهم أمامهم، ويرفعون رؤوسهم .. وبالتدريج تغاضت إدارة السجن عَمّن وضع شيئًا تحته وقت العدد .

* * *

أيها الجندى القابض على بندقيته، كأنها حِرْز مُقدّس ! لماذا، وأنتَ ترى حالنا، والظلم الهائل الذى يبهظنا، لماذا، لا تصرخ فى وجه قائدك، وترمى سلاحك فى وجهه، وتنتصر للعدالة؟

اطمئن أيها الجندى ! لا نريد ذبحك، أو إلقاءك فى البحر ! فلماذا يطيب لك القهر والإذلال والتجويع والضرب؟؟ لماذا؟

ماذا صبّوا فى قلبك، وماذا قالوا لك عنّا؟؟

مَنْ الذى عبّأ عقلك بكل هذه الكراهية العمياء؟ وكيف لك أن تحتمل كل هذا الظلام بداخلك، وهذه السموم بأنفاسك ! وكيف لم

www.alkottob.com

تمت من ثِقَل ما حشوك به من موت، وجعلوك مشوّهًا إلى هذا الحد؟

هل ترى عيناك أيها الجندى، غير الذى تراه عيون البشر؟ وهل تسمع أذناك غير الذى تسمعه آذان الناس؟

ألم تر ما يَفعله قومك بنا؟ ألم تسمع الصرخات والولولات والأنين؟

كيف تسمح لك إنسانيتك أن تكون شريكًا فى ساحات الإعدام؟

ألم تلاحظ أننا بشر مثلك، لنا عيون ووجوه وأيدٍ وأرجل .. وأننا نأكل ونشرب ونمشى...

إن صمتك، أيها الجندى، وحَمْلك هذا السلاح، وسرعتك فى سحب أقسام البندقية، وإطلاق الرصاص، جعلتنى أحلم ليل نهار كيف أُطبق بكلتا يدى حول عنقك، وعنق كل جندى مثلك .. لا لأنك جندى مشوّه أحمق، بل لأنك جعلتنى أعرف الكراهية! وجعلتنى أكرهك وأنتَ على حالك هذه، بل دفعتنى إلى أن أفكر فى القتل، أعنى قتلك أنت.. حتى أوقف القتل، على هذه الأرض.

.. كم أنت مشوّه أيها الجندى!، كم أنتَ بعيد عنا..!

* * *

ثمة قصّة وقعت وقت العدد، كادت تحصد ألف قتيل منّا. كُنّا نجلس والضابط الإسرائيلى ينادى على أرقامنا، وفى تلك اللحظات اضطر أحد المعتقلين، على ما يبدو، لينفّس بعض غازات بطنه .. فخرج الصوت وتضاحك بعض المعتقلين على هذا "الصوت" الذى

جاء فى غير أوانه .. لقد كان صعبًا على "أحمد الحزين" و"على الرجوب" و"الفطافطة" ألاّ يضحكوا .. رغم أنهم محسوبون من قيادة المعتقل ورجالاته الأشداء، فما كان من الجنود إلاّ أن ابتعدوا عدة أمتار، وسحبوا أقسام رشاشاتهم، وأعطى الضابط الأمر لهم بإطلاق الرصاص .. لولا أن شاويش القسم الشجاع منير العبوشى اعترض بجسمه البنادق، وسارع بلغته العبرية إلى شرح الموقف للضابط .. حتى هدّأ روعه!! فعادوا بعد ساعة، وأعادوا "العدد" وعاقبونا بالدخان والراديو!

– مَنْ هو شاويش القسم، وما هو عقاب الراديو والدخان هذا؟ –

شاويش القسم هو أحد المعتقلين الفلسطينيين، ينتخبه المعتقلون ليكون حلقة الوصل بينهم وبين إدارة السجن، على أن يكون هذا الشاويش معروفًا بوطنيته وصلابته وإتقانه العبرية، وغالبًا ما يكون "خرّيجًا" من أحد السجون الإسرائيلية.

أما عقاب الدخان والراديو، فإن إدارة السجن توزّع على كل معتقل خمس سجائر يوميًا من نوع "خنتريش"؛ وهو دخان سيىء ومن دون فلتر ويُسمّى "أُسكت"، حيث تقطع إدارة السجن الدخان عن المعتقلين، حسب مزاجها، يومًا أو أكثر. أما الراديو، فإن إدارة السجن التى وضعت مكبرات صوت نشرتها على كل الأقسام، وعلّقتها على أعمدة الكهرباء، فإنها "تشنّف" آذاننا بنشرة أخبار من "صوت إسرائيل" صباحًا، وأخرى مساءً، وأحيانًا تُسْمعنا أغنية أم كلثوم عصرًا! وفى أحد الأيام، كان صوت أم كلثوم يسبح مع

www.alkottob.com

غروب الصحراء وهى تهدهد قصيدة "سلوا قلبى" ، ولما أتت على قول أحمد شوقى (وما نيل المطالب بالتمنّى) قطعت إدارة السجن الأغنية، وعاقبت أم كلثوم على أغنيتها تلك، فلم نعد نسمعها.

وعند الساعة الرابعة، تعود لجنة النشاطات إلى الحياة، حيث تفتح ورشة نقاش فى كل خيمة، ويتم فرز أحد المتحدثين، لمناقشة الحضور فى موضوعة معينة، أو إلقاء محاضرة، حسب تخصصه واهتمامه .. وهكذا يدور المتحدثون، كل يوم فى خيمة، ويتم اقتراح ندوات ومحاضرات جديدة .. وتظل الندوات كخليّة النحل، حتى الساعة السادسة موعد طعام العشاء . وطعام العشاء هو ذاته طعام الإفطار! وبعد ساعتين، أى عند الثامنة، يدخل الجنود ومدافع الغاز، ليتمّموا "العدد" الثالث! ثم يقول الضابط لشاويش القسم الجُملة نفسها: عند العاشرة يتم إغلاق الخيمات.. وعَ النوم! وما بدّى صوت .. مفهوم!!

وقبل العاشرة بقليل، يكون المعتقلون قد اصطفوا فى شبه طابور أمام ماسورة الماء، يحملون فراشى أسنانهم، و"البشاكير" على أكتافهم، ويذهبون إلى بحر الحمّامات الطافح المقرف، ليفرغوا ما حملته المثانى . أما إذا ازدحم جسم أحد المعتقلين بالماء، وأراد أن يذهب إلى الحمّام، لقضاء حاجته بعد العاشرة، فعليه أن يخرج من الخيمة بصحبة شاويش القسم، الذى يضطر لاصطحابه.. وانتظاره أمام الحمّام .. حتى يقضى شأنه! وكثيراً ما يقضى الشاويش هذا، ليلته فى هذه المشاوير الآسنة . لهذا تقوم لجنة الصندوق، بصرف

ثلاث سجائر إضافية للشاويش، تقديراً لجهوده . ولجنة الصندوق هذه، مسؤولة عن تسلم السجائر والصابون، وشفرات الحلاقة (١٢ شفرة شهرياً لكل قسم)، ما دفع أكثر من تسعين فى المئة من المعتقلين إلى إطلاق شعر ذقونهم! وتقوم هذه اللجنة بتوزيع التموين بالتساوى الشديد على الجميع، ودون تمييز!

المعتقلون، عادة، وبعد أن يتم إسدال أذيال الخيمة، عند العاشرة ليلاً، يقوم بعضهم برفع أطرافها، حتى يدخل ضوء أعمدة الكهرباء، قليلاً .. ليواصلوا القراءة .. وللقراءة فى السجن طعم آخر مختلف، فهنا لا تتم القراءة لزيادة المعرفة، ولكن، باعتبارها تحدياً من نوع آخر، نوعاً من إثبات الذات والانشغال بأمر "علوى" لا يستطيع السجّان منعه عنّا . للقراءة فى السجن طعم تطهّرى ونضالى، ولهذا، فإن ما نقرأه فى السجن لا ننساه عادة .

وساق الله على تلك الليالى التى كان "بُرشى" أو سريرى إلى جانب سرير الصديق الشاعر وسيم الكردى الذى جعلنى وإياه نحفظ العهدين القديم والجديد (التوراة والإنجيل)، وروايات نجيب محفوظ وإحسان عبد القدوس، والطاهر وطّار، وجان بول سارتر، ومنشورات "دار التقدم" السوفييتية، من روايات وكتب فكرية وتنظيرات ماركسية ...

أما باقى المعتقلين، فكانوا يحلمون بيقظتهم .. ويخرجون بأرواحهم إلى آفاق بعيدة، يلتقون أزواجهم وأبناءهم وأحبابهم .. ويحلمون .. ويحلمون ..

www.alkottob.com

... إنّ هذا الرَملَ يكذبُ
لا أُصَدِّقُ غَير هذا الشَّهدِ
فى عَينى هَزار
وجُلَّنارِ خُدُودِها
ومياه ضحكتِها إذا فاضَت علىَّ
وطَوَّقَتْنى بالمراجيحِ البَعيدةِ والذِراعِ
وقَبَّلتنى كالحمامةِ كى أقولَ :
حَبيبتى الأحلى هَزارُ
ومُهجَتى، رُوحى ..
واسْكُتُ كىْ تُجيبَ بصَوتها القُزَحىِّ ..
- تضحكُ، تُشرقُ العَينان ،
تَنْظُرُ فى عُيونى كى أُقَبِّلَها -
أَقولُ: حبيبتى ؟!
وتردُّ فى فَرحٍ: أنا، وتضُّمنى ..
ويكادُ قلبى أن يطيرَ ،
ويخلعَ القَفصَ المنيعَ
لكى يُسَربلها بحُبِّى أو بخَوفى
آه يا روحى الصَّغيرة، لا تنامى
داعبى شَعرى بكَفِّك ،
واسألينى باندهاشٍ
كَيفَ جاءتْ أُختُكِ الصُّغرى ،

وقولى ما حَفظتِ منَ الأَغانى
والأناشيدِ القَصيرةِ ،
رَتِّلى الآياتِ كالطيرِ السَّعيد ،
أو اطلبى بَعضَ السكاكرِ والعَرائسِ
والعبى مَعها ،
ونُطِّى فى زَوايا البَيْتِ
وابكى، كسِّرى بَعضَ الأَوانى
خَربشى المَهْدَ الرَّتيبَ
ومزِّقى الصُّوَرَ القَديمةَ
وانعفى الحَلوى وأَوراقَ الزُّهورِ
على السرير
أَو ادلَى كَأسَ الحليبِ على الفراشِ
ولا تنامى .
إنَّ وجْهَكِ يَغسلُ القلْبَ المُعذَّبَ بالضياء
وإننى أنسى - إذا حَضَرتْ عُيونُكِ - كلَّ أَحزانى
- وحزنى مِثْلُ غاباتِ الشتاءِ -
فلا تنامى يا ملاكى
ثُمَ أَسأَلُ:
هَل تنامُ حبيبتى
أَم أَنَّ عينيها تَلوحُ؟؟
فَلا تُخبِّرُنى النجومُ

www.alkottob.com

عَنِ السُّؤالِ أوِ الجوابْ .

* * *

ثمة بئر عميقة، لا يملك رؤيةَ ما فيها إلاّ علاّم الغيوب وأنت ! وما فيها كثير كثير ! وهو ما تحاول إخفاءه أو إنكاره، بل تسعى لنسيانه . .

– لكنه خربشات المراهقة وهوس الشباب ! فلماذا الخجل ؟ بل ما الذى نبّهك لتلك البئر التى دفنتَ فيها كل عيوبك وفلتات جنونك ؟

يا للفضيحة والعار، لو انكشف المستور ! يا ويلك . . أما كان بإمكانك أن تكون أكثر عفّة ومعقولية !؟ وما أدراك أنّك لن تفضح نفسك، كما فضح ذلك الشاب نفسه، وقال كل أسراره وهو نائم ! كأنه كان تحت تأثير تنويم مغناطيسى، فى غرفة طبيب، وعلى سريره الإكلينيكى ؟

– لكننى لا أتحدث وأنا نائم ؟

ومَنْ أدراك ؟ ربما تتحدث هنا فى السجن، ويكون البعض مستيقظًا، وسيسمع كل خطاياك وزلاّتك . .

– إذًا، لن أنام !

لكنك ستنام، فالنعاس مثل الموت أو المرض، لا يستأذن، ولا يرعوى، ولا يخضع لتعليمات الملوك، أو فرمانات السلاطين . . إننا بشر . . إننا بشر . .

– لأننا بشر، سأنام إذًا، فما فعلته بشرى تمامًا . . وليسمعوا ما

لم أقله، وما سأقوله . .

تنام . . وفى الصباح، تنظر وجوه زملائك . . فلا ترى شيئًا جديدًا، فتسرى الطمأنينة إلى نفسك . . وتتأكد أنك لم تحلم بصوت مسموع . . ولم تتكلم ! الحمد لله . .

* * *

الليل فى "كتسيعوت" محيط من الثلج غير الملموس، لكن العظام تتخشب من مساميره التى تصطك بالنخاع الشوكى، وخناجره القاسية التى تعرّى العظام من كل دفء . أما النهار فهو هواء ملىء بالذباب والبعوض الوقح، ولشدّة حرّه وقيظه تكاد أمعاؤك تخرج من بين شفتيك ! وربما لن يسعفك ماء الثلاجة !

– هل ثمة ثلاجة ؟

ثلاجة المعتقلين هى برميل بلاستيكى، دفنه المعتقلون حتى رقبته فى الأرض، ولفّوا ما تبقى منه بقطعة بطانية، وأغرقوا محيطه بالماء، وغطوه بقطعة قماش نظيفة، غالبًا ما تكون قميصًا برتقاليًا كئيبًا .

أما الرياضة الفُضلى، فهى "الكسدرة" ، "ويا عينى" على المشى السريع، حيث يذرع معتقلان أو ثلاثة ساحة القسم جيئة وذهابًا، مدة ساعتين أو أكثر، خصوصًا بعد "العدد" الثالث حتى إغلاق الخيمات . . أما باقى المعتقلين فيتحلّقون فى جلسات متناثرة هنا وهناك، يتحدثون، يتناقشون، يضحكون، يُغنّون، يسهمون فى لا شىء . . وبعضهم يعمل نحّاتًا، حيث يجمع بعض الحجارة الصغيرة، التى يقترب شكلها من الرخام، ويبدأون بشحذه مع حجر

www.alkottob.com

آخر، مستعينين بالماء، أو بمسمار تمّ تهريبه .. ليتشكل بين يديه تمثالاً أو أيقونة أو حبّات سبحة، أو خاتماً أو تعليقة عقد.. أو شكل حرف .. وما أكثر ما نحت المعتقلون ! !

أما وسيم الكردى وأنا، فكُنّا، غالبًا، ما ننادى على ذى الصوت الجميل، الرجل الفكاهى خفيف الظل إبراهيم رمضان، وعلى الأصدقاء طلال دويكات، وأبى عاصف البرغوثى، وأبى محمود السلوادى، وعلى دخل الله، والصيدلانى أحمد عديلة .. ونشكّل نجمة كنعانية تضجّ بالغناء والشعرِ والقفشات والحوارات .. والحنين .. أو مناقشة أمر ما !

وكثيراً ما كانت تتسع الجلسة لتشمل عدداً رائعًا من الأحبّة، أذكر منهم الرجل الطيّب محمد خالد الفقيه، وعمر أبا عبيد "أبا بيسان" الحنون الرقيق، وكامل جبيل، وسمير الشاويش، وبدران جابر، وجبريل البكرى، وأبو صبحة والحورانى، والحزين، وعلى الرجوب، ولؤى عبده، وجمال الديك وأبا بشار!

– مَنْ أبو بشار هذا؟

أبو بشار رجل تجرّأت عليه السنوات، وبلغ الستين، اعتقل تسع سنوات فى معتقل الجفر الصحراوى، وظلّ شيوعيًا صلبًا، يتقن الثبات والدماثة والابتسامة الكبيرة . أما زهران أبو قبيطة فكان غالبًا ما يشاركنا فكاهتنا دون أن يتخلّى عن جديته ورصانته العميقة.

وكثيراً ما يمر بنا أبو دلال ضاحكًا مازحًا .. وأبو دلال هذا أشجع

مَنْ رأيت وسمعت ! رجل جسور، أعتقد أن الموت سيتردد كثيراً قبل أن يقترب منه .. لكن أبا دلال (كامل الأفغانى) شديد التواضع، وهو كتلة من الطيبة والرقة والإيثار .

لقد كانت نجمتنا الكنعانية مصدر جذب طيّب لعديد من المعتقلين الراسخين فى عوالم السجن والنضال، حتى إن رجلاً مثل رشيد منصور، المعروف بتبتُّله وتديّنه، وحرصه على أداء صلاة الضحى، والصيام يومى الخميس والإثنين .. كان يحب جلستنا، ونُسعد بشَهْد لسانه وطلّته المضيئة . أما زياد هبّ الريح الذى يخيفك حضوره المجرد، فسرعان ما تكتشف الرقّة والرجولة والمرونة خلف هذه الصلابة الظاهرة.

أما عصام أبو بكر فإنه يحمل ذاك اللمعان الذى كان يميز الشهيد القائد أبا على إياد، حيث إن "عصام" ينتمى إلى عشيرة شريم التى أنبتت أبا على إياد، ويحرص عصام، على ما يبدو، على أن يظل محافظًا على هذا الخيط الذهبى المهيب الذى يشعّ من جبهته الناضجة الصلبة.

أمّا د. ثابت الثابت، وأبو الطيب جرادات، فإنهما "يزعلان" إذا ما اتسعت الجلسة، ولم يكونا حاضرين .. لكن غيابهما كان محموداً، لأن د. ثابت كان يلازم المرضى حتى يبرأوا، وعندما يتعب يُسلّم المهمة للدكتور سعيد الطريفى الذى كان يعتبر نفسه مسؤولاً عن صحة المعتقلين، فى حين يكون أبو الطيب يدور من خيمة إلى أخرى مع عبد الفتاح أبى الذهب وأبى صالح يتحسسون أحوال

www.alkottob.com

السجناء، معتبرين أنفسهم آباء لكل الشبّان الذين وجدوا أنفسهم، فجأة، فى حمأة هذى الصحراء.

أمّا نايف سويطات، فإنه يبقى بكامل تماسكه وجدّه المتواصلين يعمل ليل نهار، فى المطبخ، والتنظيم ... وترتيب الأوضاع .. والبسمة البريئة لا تفارق أسنانه الواضحة.

أين أنتم يا كلكم الآن؟ هل تحتاجون لكتسيعوت جديد حتى تلتقوا ثانية؟ على أشغالكم، فى هذه الدنيا، اللعنة..

وإبراهيم رمضان، مع كل هذا، لا يكفّ عن الغناء، بمصاحبة الصديق الشجاع فتحى جرادات والحاج نادى، مختار "سعير" المتوّج، اللذين يُشكّلان كورالاً، يزيد نشازهما فى الغناء ... فى تواصل ضحكنا .. الذى غالبًا ما ينتهى بصمت عميق!

وهل تذكر باسم يا إبراهيم!؟

ذلك الشاب "المشخّصاتى" الذى كان يقلّد أشهر ممثلى السينما المصرية، وخصوصًا توفيق الدقن؛ بصوته الأجش، وسخريته النهارية المحمولة على المفارقة، واللعب على ملامح وجهه وتنغيم صوته ..

كان باسم شديد الحزن، لكنه يفتح ستارة مسرحه وسط الخيمة، كُلّما طاب وحى الموقف . كان يبدأ بتقليد محمود المليجى، ويُغّنى كما يفعل فريد الأطرش، بكاريكاتورية صوتيّة مبالغ فيها، ويتقّمص عادل إمام وإسماعيل ياسين وغيرهم.. ويُنهى عرضه بتوفيق الدقن. حتى نسى المعتقلون اسم باسم الحقيقى، وصاروا

ينادونه بـ توفيق الدقن.

لقد خشينا، كثيراً، من الموت ضحكًا، عندما كان ينفجر باسم العنبتى، وهو يقدم لنا أفلامه المجّانية، كلما كانت المناسبة مواتية، والتى أحيانًا، يجعل أحد المعتقلين المسؤولين بطلاً لواحدٍ منها، فيُسقط على لسانه وحركاته شهواتنا ورغباتنا ... وأحلامنا المكبوتة.

أين العَنبتى؟

إننى أفتقد، جداً، توفيق الدقن، يا إبراهيم.

بل، أين أنت الآن يا إبراهيم؟ إنّ صوتك ما زال يُجَنّح فى فضائى كلما ذهبتُ وحدى إلى وحدى! وكيف أحوالك يا أحمد عديلة، يا مَنْ كنت تغسل الملابس الداخلية للمرضى وتطعمهم بيديك أنتَ وجمال الديك كأنهم أبناؤكم القاصرون؟

وهل تذكر يا إبراهيم ليلة نبهان خريشة المزدوجة؟

كان نبهان خريشة شاويشًا لقسم ٤، عندما لم يستطع "بكر المبسوط" الجلوس ساعة العدد على "مؤخرته"! فظل الضابط والجنود واقفين على باب القسم، ولّما استفسروا عن "رفض" هذا المعتقل الجلوس .. لم يتمكن نبهان من أن يشرح للضابط مأساة "الباسور" التى داهمت بكر هذا، ومنعه النزيف من الجلوس .. لكن الضابط لم يفهم على نبهان لضعف لغته العبرية .. وأخيراً، قال نبهان للضابط إن لديه مشكلة فى قفاه .. ولّما ضحك الضابط .. كان الدم قد غطى أرضية الساحة . وسُمح لبكر المبسوط أن يقف ساعة العدد

www.alkottob.com

والدم يقطر منه.. بعدها أمضى الأطباء المعتقلون ساعة كاملة، وهم يعبثون بـ"قاعدة" بكر المبسوط الذى آله الباسور حتى الصراخ .

وللتسرية عن بكر أقام المعتقلون حفلة على شرف باسوره.. فسمع الضابط الغناء! فنادى الشاويش نبهان خريشة مستفسراً منه عن سبب الغناء الممنوع... فقال له نبهان: إن المعتقلين يحتفلون بعيد ميلاد أبو هريرة!

- مَنْ أبو هريرة هذا يا نبهان؟

شرح نبهان للضابط مَنْ هو أبو هريرة .. ومضى، وبعد نصف ساعة ارتفع صوت الغناء .. فهرع الضابط يلوم نبهان ويحذّره، فقال له نبهان: إنهم يحتفلون بعيد طهور أبو ذرّ الغفارى!

- مَنْ أبو ذرّ هذا يا نبهان؟

حاول نبهان أن يشرح الأمر للضابط، لكن أغنية "غلاّبة يا فتح" فضحت نبهان . وبان الأمر .. وسمع الضابط كلمة "فتح" فأخذ نبهان إلى الزنزانة مصحوباً بتهمتين: الأولى: الضحك على الإدارة بحجة مشكلة "باسور" بكر، والثانية: الاحتفال بأعياد ميلاد رجالات "فتح"، وهما أبو هريرة وأبو ذرّ الغفارى!

ذهبت إلى عيادة بكر فى خيمته، فوجدته مبطوحاً على بطنه، يئنّ من الألم، ويضحك من التعليقات التى يسمعها من الأصدقاء: (سلامة قفاك يا بكر) (إن شاء الله قفا "إيتسك" ولا قفاك) - وإيتسك ضابط أمن طويل القامة، أنيق، يحمل عصا الجنرالات دائماً، يضع نظارته الشمسية ليل نهار، لا يبتسم، كأنه مصنوع من

الشمع .. لكنه لا يرحم! وهو نموذج للرجل الأبيض الدموى المُهلك- .

- كيف وضعك يا بكر؟ وبكر بلدياتى، كلانا من قلقيلية.. يهمس لى بكر بأن "أبو الهزاع" و"أبو على شريم" وبقية شباب البلد معتقلون .. ووصلوا اليوم إلى القسم الثانى!

أبو الهزاع؟

أحمد هزاع شريم، أمضى عشرين عاماً، غير منقوصات، فى سجون الاحتلال، امتدت من شتاء ١٩٦٨ حتى شتاء ١٩٨٨، وكان إفراجه فى ذروة الانتفاضة، وبعد عشرين عاماً، هى السنوات الطويلة المليئة بالعذاب والفجائع، خرج أبو الهزّاع ليجدد نضاله ونشاطه الوطنى فاعتقلته إسرائيل .. واحتمل عتاب خطيبته التى عليها أن تنتظره أكثر.. كأن عشرين عاماً لم تكن كافية، للاستعداد وإتمام الزواج؟

كانت كافية يا أحمد تلك السنوات، ولم يكن ليعتب عليك أحد، لو استرحت قليلاً، وتزوّجت لترى ابنك قبل أن تخونك الأيام تماماً!

أمّا وريث سيدنا أيوب فى القرن العشرين، وأعنى أبا على شريم فقد أمضى ثمانية عشر عاماً فى سجون الاحتلال، وها هو يعود إلى السجن صابراً راسخاً، كأنه جبل صلد لا تهزه القيود، ولا تخيفه الزنازين والجنود! فكيف لنا ألاّ نصبر ونقاوم ونغنّى .. ونحن فى حضرة هذه الآلاف المؤلفة من مخضرمى النضال والكفاح والصبر

www.alkottob.com

الواعى المطمئن !
وكيف لى ألاّ أُصدِّق كلَ أحبابى
بأنصار البطولة
والرجالُ هنا بأنصار البطولة
لم تساوم
بل تقاوم
أو تقاوم ذُلّها
أو جوعَها
وزوابعَ الصحراء
والرملَ المعبّأ بالذئاب !

* * *

اشتدّ الألم على بكر، حتى اضطررنا إلى أن نبقى حوله طيلة الليل، ولا أمل فى نقله إلى أى مشفى، لأن العلاج الُمتاح فى السجن هو إعطاء المريض حبّة "أكامول" أو "اسبرين" .. وفى أقصى الحالات يتم إعطاء المريض شريطًا من كبسولات المضاد الحيوى "الأنتى بيوتيك" . لكننا، وبعد مراجعة الطبيبين ثابت الثابت وسعيد الطريفى، وجدنا ضالتنا لعلاج بكر بوساطة "طشت" ماء ساخن ! فنادينا على "المختار" مسؤول المطبخ والصيانة فى الأقسام الأخ المناضل قدورة موسى، ابن جنين، الذى لا يهدأ ولا ينام، وهو يدور من قسم إلى آخر يتفقد الماء والنظافة وكميات الطعام وأمور الصندوق، وما يحتويه من صابون ودخان .. والذى كان يُهَرِّب،

بطريقته، راديو صغيراً، لكل قسم، وكميات إضافية من الدخان والطعام .. وبالطبع كان قدورة ضابط الارتباط السرىّ بين كل أقسام المعتقل !

– أحضر لنا ماءً ساخنًا من المطبخ يا أبا موسى ! فيسارع قدورة موسى بضحكته الطازجة حاملاً "طشت" ماء يغلى .. ويترك الباقى للطبيبين ثابت وسعيد .. وبالمناسبة فهما طبيبا أسنان !

* * *

بعد ثلاث عشرة سنة، تقريبًا، وعند انتهائى من كتابة هذه الشهادة / الرحلة الشاقة لـ "أنصار ٣"، فُجعنا بخبر استشهاد د. ثابت ثابت صبيحة يوم ٣١ / ١٢ / ٢٠٠٠ أمام بيته فى مدينة طولكرم. وعليه، لا بُدّ من الوقوف إجلالاً أمام هذا الشهيد البطل الذى سقط وهو يواجه وباء الاحتلال، بكل ما أوتى من دم وشرف وبسالة .

(يحق لعينى الفهد الخضراوين اللتين انطفأتا باغتيال د. ثابت الثابت، أن نَصبغ أسناننا بالسواد، حزنًا ومرارةً، وأن نهيل الرماد والتراب على رؤوسنا، وأن ينتحب القلب، ويجوح الصدر ... حتى لا يظل دمع فى الرأس.

مَنْ يُصدّق أن ثابت مات !؟

–أستغفر الله العظيم–

هل رأيتم رجلاً من ندى وريحان، ووجهًا من فرح الأطفال، وضحكة من رذاذ العيد ؟

www.alkottob.com

ذاك ثابت الثابت.

وهل عانقتم نهراً فى جسد يضفضف بالنور والذهب؟ وهل أحببتم صلاةَ الشجر، أو لقاءَ البعيد العائد؟ وهل حملتم زهرةَ الحليب إلى الأمهات، بأناقة وخشوع؟

لقد كان ثابتُ فى العناق المجيد، حتى سقط!

ثابت (أبو أحمد) مات. إذاً لتدقّ الأجراس ألف ألف عام، ولتُكَبّر المآذن ألف ألف مثلها، وليكتبوا على مداخل المدن والبلاد: إن ثابت مات! فلتُرضع السروةُ ابنتها لبناً من دمعها عليه، ولتُطلِق السباعُ قشعريرةَ الوديان بعويلها، لأن أبا الجبال مات، وأبا الينابيع مات، وأبا الطيور البريئة مات.

مَنْ رأى منكم أبا أحمد فى السجن؟

كثيرون، بالتأكيد!

كان تاج شمعة بحجم الإنسان، يحبّ الشعر الواضح وأطفال السخرية، ويمتعض من الالتباس والغمغمة. قليل الكلام، دائم الابتسام، لم يلق بالاً لقمصان السجن أو لزمهرير الهزيع. كان يفرك كفّيه، ويعاود الاطمئنان على المرضى، يجسّ نبضهم، ويعصر خرقة الماء، ويبسطها على جبين مَنْ وقع فى حمّى تردّد المناخ.

حُمْرةُ وجهه زائدة، كأنه مرهون لغضب أبدى، أو كأنه من سلالة "الزهراء" الطاهرة.

على مثله يبكى الرجال، وعند موته يموت الصبر، ويصبح الحزن وحشاً يفتتّ الكبد ويحرق القلب.

مَنْ رأى أبا أحمد؟

كان زهر الليمون الشتوى يسّاقط من أكمامه، ويطلّ النرجس من عنقه المشرّب بالمغيب، كانت تَحفُّهُ عرائسُ الغموض، وتحمل خطوته إلى درج الصباح، فيظلّ واثقاً رائقاً يضوّع الطريق بالأريج. كان فى المعتقل، يرقب رقعة الشطرنج، حتى إذا فرغ اللاعبان نصح الغالب والمغلوب، وبيّن لهما أخطاءهما ... وعندما يطلبه أحد للمبارزة، كان يقول له: إن بيادقى من لحم ودم، وأنا الحصان والقلعة والملك!

كيف سمحتَ لهم، أيّها الملك، أن يُقلّبوا جثمانك أمام كاميرات الصحافة، ليظهروا للعالَم مكمن إصابتك ومداها ... ولم تبعدهم؟!

كنتَ مستسلماً، ذراعاك على بطنك مقيّدتان، كنتَ حيادياً، ثم دفعوا بك إلى الصندوق المُعتم البارد!

انتظرتُ أن تدفعهم بعزيمة يديك، وأن تنهض بكامل نبيذك وعسلك، وأن تذهب إلى ملابسك، فترتديها من جديد، وتعود إلى إصلاح السيارة من ثقوب الرصاص الغليظ.

لماذا لم تفعلها وتنهض يا ثابت ... لماذا؟

هل ذهبت إلى الجنّة!؟

حسناً، طولكرم جنّة أيضاً، وأقسم بالله، لو أنكَ سمعتَ بكاء أبنائك وأهلك ونشيج صراخهم، لكشفتَ غطاء النعش، ونزلت منه ... وذهبت إليهم، تعتذر لهم عن موتك!

www.alkottob.com

لكنك لم ولن تعتذر، كأنك تريد بموتك أن تدفن قرن المظلمة والاستلاب، وتبعث بدمك الجُلّنار، ذكرى العاصفة المتجددة، حتى الأسوار والنشيد الأخير.

وهل نحن أحياء لنقول إنك ميت يا ثابت؟ وكيف نكون أحياء وصخرة المعراج محاطة بسنابك خيل الآخرين، ولم يرتفع حزننا الغولى فوق قامة الفقاعة، أو على ضباع أسبارطة التى تلعق دماءنا بأنيابها وخراطيم حديدها المُهلك.

وهل سنواصل السلام بعد قليل؟ لتنسرب الرغوة الفاسدة إلى رئتى القرى والصلوات، ونطوى صفحة وجهك الأرجوان؟

أرى حبّةً من كهرمان صدرك تسقط فى الطريق .. وبعد قليل، ستنفجر الأشجار، وينفضُ فتى العاصفة غُصْنَ البرق، لتنثال على الدنيا أنوار المجد والخلاص! عندها، ربما، سنبكى رجلاً، كان ثابتًا على عهد التراب، وكان اسمه العالى المسجّى: ثابت ثابت!)

* * *

وإذا غاب قدورة أبو موسى، أو كان مشغولاً فى مطبخ المعتقل، ولا بُدّ من بعث رسالة من قسم إلى آخر، فثمة طريقة "الحمام الزاجل" أو "الصحون الطائرة" حيث يتم لفّ الرسالة وربطها بحجر أو بقطع ملبّدة من لبّ الخبز .. ورميها بأقصى قوة إلى القسم الآخر .. ودائمًا هناك شخص مُكلّف بالتقاط الرسالة وتسليمها للجنة القسم الوطنية ..!

إذ إن لكل قسم "لجنة وطنية" أو "لجنة نضالية" تتكون من ممثل

لكل فصيل (فتح، الجبهة الشعبية، الجبهة الديمقراطية، الحزب الشيوعى الذى أصبح حزب الشعب) وهى أعلى لجنة مسؤولة عن كل شىء داخل القسم، ولها مرجعية تزوّدها بتعليمات دورية، غالبًا ما تكون أُسبوعية. والمرجعية هى "اللجنة النضالية العليا" المكونة من الفصائل الأربعة المذكورة، ويكون ممثل حركة فتح منسقًا للجنة العليا، ولجنة القسم... لأن أكثر من نصف المعتقلين ينتمون، أو أنصار، لحركة فتح.

ويقوم كل فصيل بتسمية أو فرز ممثليه للّجان الوطنية فى الأقسام، وكذلك ممثله فى اللجنة العليا.

وتكون لكل لجنة نضالية فى كل قسم لجان فرعية تشرف على كل صغيرة وكبيرة، تبدأ من الطعام وتوزيعه، مروراً بالنشاطات والفعاليات، وانتهاءً بإصدار البيانات والتعليمات المحلية، والضبط والرقابة الأمنية.

ثم إنّ لكل فصيل لجانه الخاصة، وغالبًا ما تتركز حول التنظيم والأمن. عدا أن لكل فصيل لجنته المركزية على مستوى كل المعتقل، ولجنة تنظيمية على مستوى القسم، ويتم انتخاب هذه اللجان التنظيمية بطريقة الاقتراع السرّى والمباشر، وبشرط منع الترشيح، بمعنى أن على كل مَنْ ينتمى لحركة "فتح"، مثلاً، أن ينتقى أو يرشّح سبعة أشخاص ليكونوا لجنة مركزية .. ومَنْ يُجمع عليهم المعتقلون الفتحاويون تتم تسميتهم كلجنة مركزية للحركة فى المعتقل، ويتم تكليف كل عضو لجنة مركزية ليكون مسؤولاً عن قطاع من

www.alkottob.com

القطاعات التالية : الأمن ، الثقافة ، التنظيم والتعبئة والتوجيه ، اللجنة العليا ، النشاطات ، الاتصال والإعلام ، التموين أو الصندوق .. إلخ

أما الإخوة فى "الاتجاه الإسلامى" فكانوا خليطًا من عدة مجموعات ، هى الإخوان المسلمون ، الجهاد الإسلامى ، حزب التحرير .. ولم تكن "حماس" قد اشتدّ عودها بعدُ ، ولم ينتظم أعضاؤها فى هرميّة تنظيمية لها حضورها وفاعليتها ، رغم أن الأشقاء فى الاتجاه الإسلامى ، كانوا يتميزون بالشجاعة والالتزام والانضباط العالى ، وساهموا مساهمة طيّبة فى تمتين جبهة المعتقلين فى صراعهم مع إدارة المعتقل .

* * *

كأنى رأيته وهو يهبط من البدر المكتمل الموشّح ، بثيابه البيضاء ، الموشّاة ببقع الأرجوان المقدّس ، وقدميه الناعمتين اللتين مرَّرت المجدلية ضفائرها عليهما !

كان شفيفًا ، عملاقًا ، كان شَعره مخضّلاً بالمياه ، يضفضف ويضيء .. فتح ذراعيه ، كأنه ما زال مصلوبًا ، فتنزل سحابتا أردانه حتى تلامسا الرمل ..

يا سيدى البهىّ المخذول بقُبلة الخيانة اللئيمة ! عُدْ إلى أبراج السماوات ، واهتف للعلىّ المجيد ، الذى يرانا .. ليمسح عن وجهك دموع المعتقلين البسطاء ، واقرأ بشارتك النافذة ، فى هذه البرارى القاسية ؛ بأنك جئت لتلقى سيفًا ، فى قلب الرمل .. لعلّ صغارنا

يدخلون – الآن – باب العامود ، ويدلفون بأناشيدهم الصغيرة ، إلى طريق الآلام .. فلا يُصعّرون خدودهم ، بل يكسرون صليبهم ، ويرمون تيجان الشوك .. وينظرون إلى الأعالى ، التى تُسبّح لمجد أمواه القلوب ، التى تغسل الطريق من غبار الجنود .. الذاهبين ، وحدهم إلى الجلجلة .. ويعلو قُدّاس الحياة واليمام .. فى كل الأزقة والأجراس .. والنداءات الخاشعة ..

يا ابن البتول ! لن يتمكّنوا منك ثانيةً ، فاذهب ، على مهل .. إلى غبش الخشوع والملائك الساهرين ..

www.alkottob.com

فى صيف ١٩٨٨ ، أعلمتنا إدارة السجن بزيارة "وزير الدفاع الإسرائيلى إسحق رابين" للمعتقل !

ورابين هذا هو الذى أمر بتحطيم وتكسير أيدى وأطراف المنتفضين، فما العمل ؟ هل نقابله ؟ هل نتظاهر فى الأقسام ؟ ماذا نردد ؟ هل نرشقه بالحجارة وقطع الصابون ؟ هل يهجم عليه ثلاثة من حاملى شفرات الحلاقة، ويمزّقون وجهه ؟

(لكن إدارة السجن جمعت شفرات الحلاقة قبل يومين، ومثلما تسلّم شاويش القسم ١٢ شفرة، عليه أن يسلّمها ١٢ شفرة ... وإلاّ تقوم الدنيا ولا تقعد)

إذاً، ما العمل ؟

أجمع المخضرمون وأعضاء اللجان الوطنية والفصائل، بعد طول

www.alkottob.com

نقاش وحوار ... على تشكيل لجنة لمقابلته، وطرح مجموعة من القضايا عليه، وتم تشكيل اللجنة من: لؤى عبده، أبى الرامز، بدران جابر، موسى أبى صبحة، محمد الحورانى، أبى بشار، سامى الكيلانى، عز الدين العريان، نايف سويطات، جمال الديك، بلال الشخشير، ثابت الثابت، كامل جبيل، رضوان زيادة، وكنتُ معهم.

دخل رابين محاطًا بأكثر من ثلاثين جنديًا مدجّجًا -من القوات الخاصة على ما يبدو، لاختلاف لباسهم والشعار على أكتافهم وطواقيهم- جلس فى أول خيمة، فى قسم ٣، وسُمح للمعتقلين أن يقتربوا، دون أن ينبسوا ببنت شفة! وحاول رابين أن يبرر إجراءات وزارة الحرب التى يقودها بشراسة وساديّة ضد الأطفال والناس العُزّل.. والجميع صامت... وعندما انتهى هزّ رأسه، كأنه ينتظر سماع شيء ما..

بدأ لؤى عبده الحديث باللغة العبرية، بثقة واتزان ووضوح، وافتتح حديثه الموجه إلى رابين بقوله: إن إجراءات الاحتلال هى إجراءات فاشية نازيّة، وإننا سنمضى قدمًا فى الانتفاضة حتى نتخلّص منكم (الاحتلال)، وإذا أردتم أن تتفاوضوا معنا، فإن لنا ممثلاً شرعيًا وحيداً موجوداً فى تونس، اذهبوا -إذا أردتم التفاوض- إليه فى تونس، فهناك لنا رئيس اسمه ياسر عرفات، وأعتقد أنك يا سيّد رابين تعرفه جيداً ... فى "الكرامة" عرفه موشيه ديان، وفى بيروت عرفه بيغن وشارون...إلخ.

واستيقظنا صبيحة اليوم التالى، فلم نجد لؤى عبده ولا بلال

الشخشير ولا رضوان زيادة (الذى توفى بعد إبعاده بعامين فى غربته .. بعمّان) ... لقد تم إخراجهم من القسم منتصف الليل، ليكونوا خارج فلسطين، مُبْعدين... مع آلاف المُبْعَدِين الآخرين!

هل أبعدوك؟
هل توّجوك القلب سرًّا
عندما جاءوا إليك
مع الغسق
وقيدوك ..؟
لا تسرقوا منه العبق
قلبى تشقق واحترق ..

* * *

ربما، كان لا بُدّ من الدم، حتى تكتمل التفاحة أو البرتقالة أو البيضة، وحتى يكفّ الجنود المدججون عن ركلنا وصفعنا، بسبب أو دون سبب! كان ذلك،عزّ ظهر يوم ١٩٨٨/٨/١٦، حيث كان الجنود يسحبون معتقلاً إلى الزنزانة، ولشدّة ضربه، غطى دمُه كاملَ وجهه .. ولّما كانت السياج لا تمنع الرؤية، احتجّ بعض المعتقلين بالصراخ: الله أكبر .. وما هى إلاّ ثانية أو أقل حتّى كانت "الله أكبر" تخرج من سبعة آلاف فم زلزلت الصحراء.. فيما ذهب المعتقلون يبحثون بين الرمل عن الحجارة والحصى، وحمل بعضهم قطع الصابون والأحذية ... وألقوا كل شيء على الجنود الذين فتحوا النار عشوائيًا على كل الأقسام، بصورة هستيرية، وبدأ الجنود

www.alkottob.com

المنتشرون فى طرقات الأقسام فتح فوهات مدافع الغاز... وظهر المسؤول الأول عن معسكر كتسيعوت "أنصار ٣" "العقيد تسيمح" ورأى ما رأى، فتناول بندقية "الأم سكستين" من أحد الجنود، وصوّب نحو المعتقلين... وغطّت سماء المعتقل غيوم الغاز الخانق... فارتمى معظم المعتقلين أرضًا، يسعلون ويعطسون... وهدأ الرصاص... وبعد نصف ساعة، انجلى المشهد، فرأينا المدافع والدبابات الثقيلة، توجّه فوهاتها الكبيرة الغليظة باتجاه الأقسام...وأمر ضباط، لم نرهم من قبل، أن نحمل الجرحى ونضعهم أمام بوابات الأقسام، لنقلهم إلى المستشفى، ففعل المعتقلون، وحمل الجنود الجرحى والمصابين إلى مكان قيل لنا إنه عيادة السجن ... وبعد ساعتين، نادى ضابط السجن على الأخ منير العبوشى الذى كان شاويش القسم، كما كان ممثلاً للمعتقلين، وعلى الأخوين عبد الله ياغى وسالم أبى صالح شاويشىّ القسمين اللذين استشهد فيهما اثنان من المعتقلين .. وأبلغوهم أن الشهيدين هما بسام السمودى وأسعد الشوّا ...

أعلن المعتقلون الإضراب عن الطعام، حداداً واحتجاجًا.. وليستمر المعتقلون تسعة أيام دون طعام، حتى استجابت إدارة السجن إلى بعض مطالبهم، فكان أن أصبح نصف التفاحة تفاحة كاملة، ومُنِعَ الجنود من ضرب السجين أمام زملائه، وتم تبديل "بُرش" البلاستيك بسرير خشبى يُسمى "مشتاح" ؛ وهو ألواح خشبية متباعدة.. وتكسر الظهر، عند النوم!، وتمت زيادة كمية الطعام،

وإدخال القهوة وجبة أسبوعية !!

اعصفْ فإنى عاصفهْ

ودماءُ قلبى راعفهْ

وجموعنا فى كتسيعوت الموت

هبّت واقفهْ

لا الموتُ يكسرنا

ولا رعبُ الدماء النازفهْ

. . . . .

... يا لعنةَ التاريخِ هذا قيدُك الهمجىُّ

أُلقيه بوجهكِ صخرةً

ولظىً على كلِ الوجوه الزائفهْ

. . . . .

ولتحذروا

هذى الجموعُ، سيولُنا الغَضبى

تهدّرُ جارفه

اعصفْ فإنى عاصفه

واعصف فإنى عاصفهْ ...

* * *

هل تنفست الصعداء لأن العناية الإلهية حرستك من الرصاص؟

آه أيها الجبان .. لقد انكشفتَ .. إنّك تخاف الموت !!

– لا .. ألم ترنى، والرصاص المجنون يئزّ حولى، بقيت واقفًا، أو

www.alkottob.com

منحازًا لنقل بعض المرضى إلى داخل الخيام، حتى لا يموتوا خنقًا أو رصاصًا؟!!

لكنك سعيد بأنك ما زلت حيًّا، بل إنك ستدّعى البطولة، وأن الموت لا يهمك ..! على كل حال احمدْ ربّك، لأنك كنت مشغولاً ساعة زلزال الرصاص .. ولو فكرتَ لحظةً باحتمال موتك لسقطتَ ميتًا! ألم تسمع المثل القائل: إنّ مَنْ يخشى الذئب .. فإنه يراه ..

ستراه يا صديقى .. ستراه! انتظر ..

* * *

بعد شهر تقريبًا، استطاع الفارس الشجاع، المناضل الشاعر توفيق زيّاد من زيارتنا فى قلب أنصار٣، كان وقتها عضواً فى الكنيست (البرلمان الإسرائيلى)، جاء... وشدّ على أيدينا، وسمع مطالبنا، وعلا صوت احتجاجه.. وودّعنا وهو يلوّح بقبضته، وهو يقول: سننتصر ... سننتصر! وسمعنا صوتَ هذا النورس الأسمر، وهو يصرخ فى وجه "تسيمح" القاتل ...

وسمعناه، وكأنّا به يهتف بقصيدته "مليون شمس فى دمى" التى يقول فيها:

سلبونى الماء، والزيتَ،
وملح الأرغفهْ
وشعاع الشمس، والبحر،
وطعم المعرفهْ

وحبيبًا - منذ عشرين - مضى
أتمنى لحظةً أن أعطفَهْ
سلبونى كل شيءٍ:
عتبة البيت، وزهر الشرفَهْ
سلبونى كل شيءٍ
غيرَ قلبٍ،
وضميرٍ،
وشَفَهْ!!
كبريائى، وأنا فى قيدهم،
أعنف من كل جنون العجرفهْ
فى دمى مليون شمس
تتحدّى الظُّلَمَ المختلفهْ
وأنا أقتحم السبعَ السموات
بحبى لكَ ..
يا شعبَ المآسى المُسرفَهْ
فأنا .. ابنكَ .. من صُلبكَ
قلبًا،
وضميرًا،
وشَفَهْ!!
يَدُنا ثابتةٌ .. ثابتةٌ
ويَدُ الظالمِ، مهما ثبتت،

www.alkottob.com

مرتجفَهْ ! !

بعده جاء عدد من أعضاء الكنيست العرب منهم : محمد ميعارى ، وعبد الوهاب دراوشة ، وأعضاء من حزب "راتس" اليسارى ، قبل أن يصبح اسمه "ميرتس" . وبدأ المحامون زيارتنا ، واستطعنا ، لأوّل مرّة ، بوساطة المحامين ، أن نتخارج مع الأهل ، ومع المدن المشتعلة التى يضيء نشيدُها ودمُها شمسَ الله ونجومَه !

وهنا ، لا بُدّ من ذكر المحامى الإنسان محمد كيوان ، ابن أم الفحم الذى كان جنديًا مجهولاً فى دفاعه المستميت عن المعتقلين ، وتقديم ما أمكن لهم . . . رحمه الله ! لقد استشهد وهو يحرث أرض أم الفحم لتظلّ عربية !

وهو الذى حمل قصيدة "ونحن سواء" التى كنتُ كتبتها للأخوات المعتقلات والأسيرات فى سجن "نفى ترتسيا" :

أَكتبُ من نرجس القلبِ
آيةَ حُبّى الكبير إليكِ
وأُهدى إليكِ السلام ،
وأسأَلُ عن مُهرة قيَّدُوها ،
وعن غيم عينيكِ ، أسألُ ،
عن دمعةٍ فى المساءْ ،
ومن عندنا فى لهيبِ الصحارى ،
سبعةُ آلافِ واحة عشقٍ
تقدُّ إليكِ نشيدَ النخيل ،

وتُهدى إليكِ رحيقَ الحُداءْ ،
وترسلُ عبرَ رداءِ الطيورِ ،
جراحات نای المحبينَ ،
عطرَ الصهيل ووجهَ السماء ،
وأسأَلُ : كيفَ تنامُ عصافيرُ حُزْنك ،
فى الليل ،
كيف يغرّد فيكِ الهزارُ ،
نهارًا ،
وكيفَ تَشُقّينَ ثوبَ " العتابا " ،
على كربلاءْ ؟ !
– وقلبى أحقُ بهذا السؤال –
فنحن نواجه رملَ المعسكر " بالآوف "
نكسرُ وحشَ الصحارى ،
بعُرْس انتفاضتنا ،
لا نكفّ عن الدَبكات ،
ونغمرُ هذا المدى بالغناءْ . . .
يا أُختَ روحى التى ما نسيتُ
أراكِ بسجنكِ أحلى وأبهى ،
فلا تستثيرى حنانَ اليمامِ ،
وراءَ الشبابيك ،
حتى يظلَّ هديلُ الشتاءْ ،

www.alkottob.com

فقد حرّقتنى دمعةُ عينكِ
لما تنزَّتْ ،
قبيلَ الدخولِ لمعنى القيودِ ،
وكنتُ أراك ابتساماً ،
ليورقَ "أنصارُ" عُشباً وماءْ ،
ونحن بدون العوالم :
ندفنُ مَنْ مات منا ،
نُشيّع مَنْ راح للسجنِ
أَو للوقوف شموخًا على النطعِ ،
أَو مَنْ تدلّى بأنشوطة الرعب ،
بزغرودة الانتماءْ .
يا أُختَ روحى ..
أَأَسأَلُ جوعَك كيف يشقّق فيك الجبال ،
وكيف البلابلُ فى شفتيكِ تنادى البحار ،
وكيف الزنازينُ تصحو على الصرخات ،
ونحن سواء؟؟
أَأَسأَلُ، والسجنُ غازٌ يُفجّر قلبَ الهواءِ ،
ونحن سواء؟؟ ،
أَأَسأَل، والقيدُ يبدأُ من رسغ كفى ،
فى "كتسيعوت" ،
ويمتد حتى يعانقَ كفيكِ

فى عتمات سجون النساءْ؟؟
لا بأس !!
فالسجنُ سهمٌ يصيبُ المخابئَ ،
فى القلبِ ،
يكشفُ سرَّ الزمانِ الثقيل ،
ويجعلُ ذكرى الطفولة والعشق ،
أشهى العذابِ ،
ويكتبنا سورةَ للإباء ...!
والسجنُ قبرٌ بكل العصور
وفى عصرنا روضة للصغار الذين ،
أتوا فى زوايا الإناء ...
فنحن – بدون السماوات والأرض –
نكبر بالموت ،
نولد فى كل حربٍ وسجنٍ
ونُطلق أطفالنا فى برارى النداءْ ...
والسجنُ من عهد جان سليمان ،
حتى النبىّ الذى راودتهُ زليخةُ ،
حتى "نفى ترتسيا" أوجدوه ،
لحرق البساتين فى الصدرِ ،
أَو لاحتواء العواصفِ والأَنبياءْ ،
ولكننا قد جعلنا السجونَ قلاعًا ،

www.alkottob.com

تضجُّ شموسًا ،
وسرجًا نطرّزه للعراءْ
شقيقةَ روحى .
إذا ما سألت ، فأنّى ما زلتُ حيًّا ،
وكُلِّى شوقٌ لعينىْ هَزار ،
وكلّى وفاءْ .

المرّة الأولى التى سمحت فيها إدارة معتقل "كتسيعوت" للصليب الأحمر بزيارتنا، كانت فى نهاية أيار ١٩٨٨، حيث دخلت امرأة سويسرية وشاب فرنسى، كوفد من الصليب الأحمر ليسمعا مطالبنا، ويطمئنا على أحوالنا.

قابلهما الإخوة محمد الحورانى، وموسى أبو صبحة، وعدنان الضميرى وجبريل البكرى وأنا فى إحدى خيمات قسم "١"، وحاولنا أن نشرح لهما كل شىء، وقدّمنا لهما قائمة مطالبنا المشروعة، التى تبدأ بتحسين شروط اعتقالنا، مروراً بحقّنا فى زيارة الأهل لنا وكذلك المحامون، وانتهاء بحقنا فى توفير الصحف اليومية والكتب والقرطاسية .. إلخ.

كانت الأقلام معدومة، وكذلك الأوراق ! لكن الشاب الفرنسى

www.alkottob.com

ذاك، نسى عمداً قلمَه لنا، فيما تركت الفتاةُ السويسرية دفترَها الصغير.. ربما استشعرا المحيط المرعب الذى يلفّنا.. فتعاطفا معنا!

بعد شهر، أو أقل، جاءت سيّارة كبيرة محمّلة بالكتب والورق الأبيض والأقلام والمساطر.. مع وفد من الصليب الأحمر، وبدأوا - على مرأى من الجنود- يوزّعون على الأقسام هذه الحمولة التى رقصنا لها! وأخبرونا: بإمكانكم أن تكتبوا الرسائل الشهرية إلى أُسركم... رغم أن إدارة السجن ستراقب كل الرسائل قبل أن نوصلها إلى البريد، لتصل إلى أهاليكم!!

عندها، استطاع المعتقلون أن يقرأوا جيداً قصص وروايات غسان كنفانى، ويحيى يخلف، وسميرة عزام، ورشاد أبو شاور، وإميل حبيبى، وأشعار محمود درويش، وسميح القاسم، وفدوى طوقان، وكمال ناصر.. وأن يحفظوا الكثير منها، وأن يناقشوا، لاحقًا، فى الجلسات الثقافية مضامينها وصورها وأشكالها الفنية! وبدأوا يتعرّفون على الوجه الآخر للقائد صلاح خلف "أبو إياد" من خلال كتابه "فلسطينى بلا هوية".

* * *

المباح قليل، والمسكوت عنه لا يُحصى! فكيف ستشرح أوجاعك، أيها المتأجج بكيمياء الرغبة، ولمسة البركان المهيب؟ وكيف ستجوح والبكاء عيب فى كتابنا المهترئ؟ وكيف لك أن تقذف كل الزجاج المشروخ الذى يُدمى رئتيك؟ وهل تستطيع أن تمارس عادات الجنّ المخفىّ، أو الحصان الذى يشمّ صفيرة الفرس تحت

شمس اللوز، فى البرارى المفتوحة، للصهيل والنحل والفَراش الموعود بالنار؟

يتحلّقون حول بعضهم البعض.. فتأخذهم اللغة الجمعيّة إلى منابرها وإيقاعاتها الجاهزة.. ومع الشروق والمغيب، يتحللّون من ربقة الكلام المُعلّب.. وينسلّون، بخفوت وتكتّم، إلى الحكايا المُحرّمة، والليالى العاصفة بالنبيذ والشهيق البعيد!

فهل يكتفون؟

إن الغَزَل، والمبالغةَ فى عبادة غلالات الليل وبنات حواء، هو آلية تعويض! مثلما تشرح النكاتُ الساخرةُ حالةَ اللارضى، والاحتجاج السلبى، على ما يدور!.. ودائمًا ثمة لغة أخرى، تجدها فى قاع المدينة، أو على جدران المراحيض العامة والحيطان. وهنا فى "أنصار ٣"، لغة أخرى أيضًا، تهمس بفحيحها وخريرها، فى كل الزوايا، ما يشير إلى أن هذه المجاميع هى مجتمع آخر، له مواصفات البلد.. وآه يا بلد!

* * *

وماذا عن الصحف أيها الصليب الطيّب؟!

بعد يومين بدأت إدارة السجن توزيع صحيفة لكل معتقل! والصحيفة هى "كولاّج" مكّون من أخبار مقصوصة من صحف عبرية وعربية وإنجليزية.. تم مونتاجها على أربع صفحات، وتصويرها عدة نسخ... وتوزيعها على المعتقلين!! وبالتأكيد، فإن الأخبار المُنتجة والمدبلجة، تتحدث كلّها بلسان إسرائيل وتطعن فى خاصرتنا!

www.alkottob.com

ولّما سأل شاويش القسم ضابط السجن عن جدوى هذه الصحيفة، التى لا يقرأها أحد قال الضابط: ألا يقرأها واحد من كل ألف، فقال الشاويش: ممكن ... فقال الضابط: إذا استطعنا أن نؤثر كل يوم فى سبعة معتقلين، فهذا يكفينا..

* * *

ما الذى جاء بك، إلى هذا الجحيم؟ أما كان بإمكانك أن تتوارى قليلاً، عن عين النار؟ لماذا كنتَ مندفعًا لتكون ساتراً تحمى المدينة؟ هل أنتَ المسيح الذى سيفدى البلد .. وتبكى أُمّهُ؟! أم أنتَ حارس أحلام الأسوار والأغانى؟ كان بمقدورك أن تتشاغل بعملك وأكل عيشك! وكان سيتمّ ذلك بدعوى أن هاجسك الحرف وليس السيف!

بل إنك تخشى من أن يكون كل هذا الألم والصراخ والدم، عبثيًّا ومجانيًّا .. فلماذا العذاب، إذاً؟

وغداً، ماذا ستفيد وتستفيد؟ بل ستخرج، إنْ خرجتَ حيًا، إلى رتابة الفراغ والعادة المقيتة! وستكون، فى أحسن الأحوال، واحداً من آلاف مؤلّفة .. ولن تتمايز عنهم .. فلماذا لم توفّر على نفسك، هذا الجنون والذلّ، والموت الساقط مع الشمس القاهرة أو النجم البارد؟!

– ماذا تقول يا رجل؟

هل سمعك أحدٌ غيرك؟ اُسكت! فأنتَ الآن رجل حقيقى، وتستطيع أن ترفع رأسك جيداً، وأنتَ تطأ الأرض كالنَمْر الواثق،

ولا بأس إنْ ارتفع صوتك فى الجلسات، فأنتَ الآن معتقل!!

وسينقلب تاج الرمل هذا إلى هالة من الطمأنينة والرسوخ والمجد.

اعتدلْ فى جلستك! واسمع ما يقوله الآخرون .. فلقد ذهبتَ بعيداً، وتركتهم حولك، كأنّ طيراً عظيمًا قد حملك إلى سماوات الظلام .. لكنك تعود الآن إلى دائرة الأصدقاء الساطعة .. فلا تنطفئ، وابدأ كلامك من نهايته .. عليك اللعنة!

* * *

بإمكانك الآن يا صديقى العزيز أن تكتب قصيدتك التى حفظتها عن ظهر قلب، بإمكانك يا عبد الناصر صالح! أيّها الشاعر المكافح، أن تكتب عن "أنصار ٣"، ما يستحق من كلام غير هذا الكلام الفائض. اُكتبْ يا صديقى تلك القصيدة التى نفذت إلى قلبى مثل سهم النور، وأشاعت القوة فى روحى ...

أعلنَ الفجرُ مخاضَهْ
خرج المولود : شعب الانتفاضهْ .
خرج المارد من قمقمهِ
صارخًا ملء الوجود
أزِفَ العهد الجديدْ .
يا عدوَّ الشّمس والإنسانِ
عُدْنا من جديدْ
ورفعنا فى جحيم الموت صرحًا للصُّمودْ .

www.alkottob.com

وعشقنا الأرض ملء القلبِ ،
ملء الرُّوحِ
أشهرنا على الباغى السلاحْ .
فاستبيحوا الأرض
لا تنتظروا
وانصبوا الأسلاك من حول البطاحْ .
قَدَرُ الإنسان أنْ يحيا
على نبض الجراحْ .
قدر الجلاَّد أن يهلك فى زحف الصَّباحْ
من دمى ينبثق الفتح ويعلو الانتصارْ
من دمى يخرج مليون نهارْ
فاقتلوا المرأةَ فى منزلها
واخنقوا بالغاز شيخًا طاعنًا بالسنِّ
يا أحفاد هولاكو التّتارْ
وأطلقوا النار على كل الصغارْ
لا غضاضَهْ .
إنّنا ميلاد شعبٍ ردَّ للكون بياضَهْ
إنّنا ميلاد شعب الانتفاضه .
فاحرقوا أغصاننا الخضراء إن شئتم
فللغصن اخضرارْ
والجباه السُّمر إعصار ونارْ

وَهْىَ جيلٌ حطّم الأغلالَ والقهرَ
وأهوالَ الحصارْ
اقتلونى ،
لستُ أرضى عن تلال اللوز
والزيتون والتين استعاضةْ
واسلبوا أرضى إذا شئتم
فللأرضِ نسيم الجبل الشامخِ
ماء النَّهرِ
أسراب العصافيرِ
وللنّسر إذا ما أزِفَ الصُّبح انقضاضَهْ
فاقتلوا النّسر
وعيثوا فى روابينا فسادًا
لن تمرّوا
جسدى العاشق للثورة جسرُ
وأنا العاصى على القتلِ
ولحمى يا عدوَّ الشّمس، مُرُّ
وعلى جبهتى السَّمراء يسترسل فجرُ
وعلى أرض بلادى ،
يا عدوَّ الشّمس
لن يمكث قهرُ
فاستمرّوا

www.alkottob.com

أيُّها الأبطال، يا عنواننا الغالى
استمرّوا
لكم المجد وطوق الياسمينْ
لكم الرّاياتُ، رغم السُّحب السوداءِ
واللّيل اللّعينْ
لكم الحريُةُّ الحمراءُ
والنّصر المبينْ
أعلن الفجر مخاضهْ
خرج المولودُ: شعبُ الانتفاضهْ
نهض المارِدُ: شعبُ الانتفاضهْ

كنتُ وقتها شاويشًا لقسم "١"، عندما أصدر "إيتسيك" قرارًا يقضى بأن نطأطئ رؤوسنا وقت "العدد"، ولما أبلغتُه أمام المعتقلين أننا نرفض هذا الطلب . هزّ رأسه، وضرب عصاه بيده .. ومضى!

عند مغرب اليوم الثانى أخذونى إلى الزنزانة الضيّقة، الموضوعة بجانب ثلاث زنازين أخرى، هى كلها زنازين جاهزة، مكوّنة من بناء أسمنتى وأرضيتها مُغطّاة بكميات كبيرة من الجير "الشيد"، عرضها متر وطولها ثلاثة أمتار، لها بوابة حديدية سميكة... أخذونى، وأدخلونى إلى الزنزانة... وربطوا رجلىّ بكلبشة... ويدىّ خلف ظهرى بكلبشة أخرى، ورمونى على أرض الزنزانة وربطوا كلبشة رجلىّ وكلبشة يدىّ بكلبشة جديدة... هذه تسمى "ربطة الموزة"، حيث يتكور الشخص مثل الهلال، ووقعت الهراوات على كل

جسمى، فهل أصرخ أم أحتمل وأصمت!؟

إذا صرخت، فإن هذا معيب لى، بصفتى شاعراً ورئيس اتحاد كتّاب فلسطين، وستهبط معنويات المعتقلين الذين ينظرون إلينا كقيادة للمعتقل!

وإذا احتملتُ وسكتّ، فإن هذا سيجعل الجنود يطمعون فى ضربى، وسيقولون فى أنفسهم: إن هذا لا يحسّ... فاضربوه.!! لكن صوت عبد الناصر صالح جاءنى بردًا وسلامًا، حيث سمع هو والمعتقلون صوت الهراوات وهى تزنّ على عظامى ولحمى، وكانت الزنزانة تقع إلى جانب قسم ٣، حيث عبد الناصر صالح، الذى وقف على برميل الماء البلاستيكى، وراح بأعلى صوته يقرأ مقطعًا من قصيدة لى ومقطعًا من قصيدته تلك ... ولم يصمت عبد الناصر طيلة الأيام الأربعة التى أكلت فيها ما يكفى من الهراوات، ولم أشهد ولم أذق ما يفعل الشعر بالروح مثلما شعرت فى تلك الأيام الأربعة .

كان صوت عبد الناصر الراعف بالشعر يصب فى دمى حممًا من الغضب والصمود والجبروت، كان الجنود يضربوننى، وكان عبدالناصر يعبئنى بالشعر، وانتصر الشعر.. أربعة أيام من العمر الذى لا ينسى، لا أتذكر وجوه الجنود ولا طعم الضرب أو رائحة الزنزانة، كل ما علق ويعلق الآن بأنفى هو رائحة الشعر العابقة الجليلة ... حيث كان يناديني، ويسمعنى أشعاره وأشعارى، ويشجعنى! ولم أخرج من الزنزانة حتى أعلن المعتقلون الإضراب

www.alkottob.com

عن الطعام احتجاجًا على ضربى ومعاقبتى ... وأخرجونى.. وكان الرجل محمد الحورانى قد أصبح شاويشًا للقسم .. وليلاقى ما لاقيت بعد أيام قليلة ..

خرجت ولم أنس كلمات صنو روحى عبد الناصر صالح، الذى وصل إلى "أنصار ٣" شبه ميت من ضرب الجنود!

- كيف جرى ما جرى لك يا عبد الناصر؟

يقول المعتقلون الذين كانوا فى الحافلة التى نقلتهم من معتقل طولكرم إلى معتقل "أنصار ٣"، إن جنديًا حقيراً طلب من عبد الناصر صالح أن يشتم "أبو عمّار"، فرفض عبد الناصر، فقام الجندى وخبط عبد الناصر على رأسه بالهراوة... وكّرر الجندىّ الطلب... وعبدالناصر مُصرّ على موقفه الشجاع... وما إن وصل إلى "أنصار ٣" حتى كان رأسه مثل الباذنجانة الكبيرة المنتفخة ... ومحيط عينيه أزرق .. لكن بصيرة عبد الناصر ظلّت باقية مثل النسر الباشق ... فى أعاليه.

* * *

ماذا لو مُتَّ؟ وجاءك ملاك الموت؟

ابدأ من أول المشهد، ولا تنس شيئًا

سيندفع الخبر الصاعق بين الجموع ..!

هل تتخيّل المشهد جيداً؟ أكمل إذًا ..

ستجتمع اللجنة النضالية، وستلتقى إدارة المعتقل، لترتيب نقل جثمانك .. وسيحملونك وحيداً إلى أهلك ..

توقف! كيف سيخرج أهلك لاستقبال موتك؟ وكيف سيصوّحون المدينة بصراخهم المفجوع ..

.. وزوجتك، وأولادك، وأمك، وأشقاؤك، وأصدقاؤك.. والجنازة .. وبيت العزاء ..

ترفع يديك، فتمسح دمعة حزنكَ على موتك! وعزاؤك أنك ما زلتَ حيًا!

ولكن! لماذا يتكرر هذا المشهد؟ اللعنة ..

* * *

ما زلت أحتفظ باللوحة التى رسمها لى (سائد حلمى)، على "بلوزة" بيضاء، أو قميص داخلى، كان أحد قطع الملابس الداخلية التى بدأت تصل إلينا عبر المحامين، من الأهل أو الصليب الأحمر، كنتُ معجبًا بسائد حلمى، هذا الفتى الهادئ الصبور، الذى أمضى فترة اعتقاله فى الرسم على الفالينات، هدية منه للمعتقلين، شرط أن يُقدَّم له بالمقابل إطار صورة، يُصنع من الكرتون والنايلون، ويتم تثبيته بخيوط ملوّنة، وله إطار معدنى خفيف، هو ما يتبقى من أغلفة أنابيب معاجين الأسنان والحلاقة . كانت اللوحة بانوراما لوحدات المعتقل، وفى داخلها الأقسام والساحات والوجوه الغاضبة، وقبضة كبيرة تشقّ كل هذا الوجود، تشعّ من حولها الشمس .

ولعل سائد ابن مخيم العروب الواقع شمال مدينة الخليل، لم يكن خريج معهد للفنون الجميلة، لكنه كان علامة فارقة، طالما اعتمدنا عليها فى رسم لوحات، وتخطيط شعارات، نزيّن بها ساحة

www.alkottob.com

أحد الأقسام، لتكون جزءاً من احتفالاتنا بالمناسبات الوطنية أو الدينية، والتى، دائماً، كانت تنتهى باقتحام الجنود للقسم، ومصادرة كل المُعلّقات، و"زنزنة" عدد من المعتقلين!

وفى إحدى المرات، كان على رأس حملة الاقتحام نائب مدير المعتقل، وكان ضابطًا يهوديًا من أصل ليبى واسمه "ألبرت"؛ كان يتحدث العربية، ويعرف مزاج العرب وعاداتهم وطقوس حياتهم.. وعندما رأى إحدى لوحات سائد.. خرج من فمه صفير إعجاب حقيقى! وغمغم قائلاً: إنكم مصممون على الحياة يا أولاد الكلب! لكن كامل جبيل، الذى كان وقتها شاويش القسم، ردّ له شتيمته بأحسن منها.. فبلع ألبرت الشتيمة.. ومضى!

فى الوحدة "ج" القسم الثانى، وفى خيمة رقم ٥٣، كان عبد الله علاونة "أبو الأمجد" ينام على بُرشه، وفوق رأسه تتدلى مُعلّقة سائد حلمى، لقد كانت لوحة لشهيد يضىء بدمه آلافًا مؤلّفة، يحملونه كالراية، فى مسيرة هادرة!

ما هذا يا أبا الأمجد؟

– إنها لوحة.. وعلينا أن نُجمّل كل شىء، حيث نقيم.. حتى أحزاننا..

وعندما دخل الجنود، فى ساعة شؤم إلى القسم، لمصادرة الشعارات واللوحات، صادروا لوحة أبى الأمجد.. فبكى، وكان إفراجه فى اليوم الثانى، وكان ينوى حمل تلك اللوحة تذكاراً معه إلى البيت. لكنه حمل معناها الساطع، فما إن وصل إلى جبع، قريته

الواقعة جنوب جنين، حتى تماهى فى تظاهرة اصطدمت مع جنود الموت... وراح الرصاص ينخّل جسده، حتى رسم، فى اليوم الثانى، وفى شوارع جبع، لوحة سائد بنبضها وحيويتها ودمها الحقيقى.

* * *

لن يصدّقنى أحد..!

– لماذا؟

لأننى رأيته..

– رأيتَ مَنْ؟

رأيت الذئب نفسه، ثانيةً، كان ينظر إلىّ من خلف السياج، كان، كما رأيته أول مرّة، هرمًا متهدّلاً، والدمع يبرق فى عينيه.. وكأن الجنود لم يروه أو يحسّوا بوجوده!!

– ألم يره أحد غيرك؟

ربما، لا أدرى.. لكننى رأيته.. أقسم لك.. وبعد أن وقف مليًّا متجمداً ينظر إلىّ، لفّ دورة كاملة.. وابتلعه الظلام..

– ربما تهيؤات يا صديقى..

لا، وسأنتظره الليلة، فإنه سيعود!

بعد ساعة أو ساعتين، جاء صديقى، وأيقظنى بانفعال، وسحبنى خارج الخيمة، فرأيت الذئب كما وصفه لى صديقى، غير أن ذئباً صغيراً يقطر الدم من عنقه المذبوح، كان مُعلّقًا بين فكىّ الذئب الذى.. ما إنْ رآنى حتى عاد بهدوء من حيث أتى..

* * *

www.alkottob.com

هَدَموا . . . !؟
– وما هدموا سوى بيتٍ
ستُعلى سقفَهُ أيدى الطفولةِ والحجارة
سَجَنوا . . . !؟
– قد أصبحتْ كلُّ السُجونِ
منارةً تلوَ المنارةْ
قَتَلوا . . . !؟
– وماذا إنْ غسلنا أرضَنا بدمائنا
فليقتلوا . . .
أعراسُنا ارتفعتْ وقد نِلنا البشارةْ
جَرَحوا . . . !؟
– فلْيجرحوا . . .
لا بأسَ من تفجير موجِ العشقِ
فى جسد البكارةْ
قد أغلقوا . . . !؟
فلْيُغلقوا كلَّ المنازل
سوفَ نبقى فى الشوارعِ
كى نسعِّرها عليهمْ
بالرجولةِ والجسارةْ
قد أبعَدوا العشرات . . . !؟
– ماذا إنْ حملنا أرضَنا فى القلب للدنيا قليلاً

سوفَ نرجعُ بعدَ أنْ نرمى إلى التاريخِ
قُضبانَ "النَّظارةْ"
مَنَعوا التَجوُّال . . . !؟
– سوفَ نكسرهُ
ونُشعِل فى المواويلِ الشَّرارةْ
قَد قَلّعوا الأشجَار . . . !؟
– سيكونُ تحتَ جذورهَا
قبرٌ لِمَن قصّوا ضفائرَها المُثارةْ
قَطعوا الميّاه . . . !؟
– ماذا إذا شربَ الرِّجالُ الظامئون جراحَهُمْ
وتَهلَّلتْ بهُم الحضارَةْ
مَنَعوا السَفَر . . . !؟
– السَبْعُ يفتكُ إن تقيَّد فى المغارةْ
قَد أحرَقوا . . . !؟
– فلْيحرقوا
هذى جهنَّمنا صليناهمْ بها
ستظلُّ مؤصدةً تُنادى :
هل سيأْتى من مزيدٍ ؟
هل سيأْتى من مزيدٍ ؟ هل سيأتى من مزيد . .

* * *

فى شهر تموز ١٩٨٨ ، أدخل الصليب الأحمر ، رقع الشطرنج ،

www.alkottob.com

والزهر (الشيش بيش والـ ٣١) إلى أقسام السجن، فوجد عدد كبير من المعتقلين ضالتهم فى قتل الوقت، وتمضية ساعات الرمل الثقيلة ، وأدخلت إدارة السجن "المقاشات" (صوانى بلاستيكية مستطيلة لسكب الطعام فى مربعاتها التى تفصلها خطوط بارزة) وأدخلت "القعارات" (صحون بلاستيكية كبيرة الحجم، قد تتسع لثلاثة لترات من الماء) .. فاجترح المعتقلون لاستغلال هذه "القعاراه" معجزات مضحكة، أوّلها أنهم قطّعوا الخبز إلى مربعات صغيرة فى القعاراه، وسكبوا كؤوس الشاى على الخبز حتى يرنخ، ثم يضعون قطعة المرجرينا "الزبدة" على سطح الخبز، ثم يقطعون أصابع الموز فوق كل ذلك، ويعصرون برتقالة أو اثنتين، ويتركونها قليلاً.. ثم ينقضّون عليها ! وهم يفعلون ذلك، كعملية احتيال لإيجاد وجبة جديدة يسكتون بها نداء أمعائهم الخاوية . أما أبو عاصف البرغوثى وأبو محمود السلوادى، فلهما طريقة أخرى فى استغلال "القعاراه"، حيث يدلحون فيها كمية الرز والشوربة وقطع الخبز وحبات الزيتون وشقفة المرجرينا والشاى .. دفعة واحدة، ثم يحركون بملاعقهم البلاستيكية هذه الخلطة .. ويبدأون التهام "القعاراه" وما فيها ! وفتحى جرادات يجحظ بعينيه، ويفركهما.. غير مصدّق ما يرى !

* * *

مرّ أُسبوع، ولم يدخل بطوننا سوى الماء والملح.. وربما سيطول الإضراب عن الطعام .. وهنا تتفتق خيالات المعتقلين عن "أكلات" عجيبة ! وقد هدّهم الجوع !

وفى هذه الأثناء، تتأكد من أن الله، عز وجل، لم يُخضع الإنسان إلاّ بالجوع أولاً .. ثم بالنار والويل والثبور..

يجلس المعتقلون، يتذكر كل منهم ألذ طبخة، وأطيب طعام... فيقول قائل: تخيلوا لو أن الله ينزل علينا طنجرة ملفوف أو محشى ! ويقول آخر: تخيلوا أن "منسفًا" أمامنا الآن.. ماذا سنفعل به؟ ويقترح ثالث أن نتذكّر طبخة "المنزّلة" أو "البامية فى الطابون مع لحمة رأس عصفور" .

أما أغرب ما سمعت، أن معتقلاً تخيّل "مرج بنى عامر" مليئًا بالرز المغطّى باللحم، وتمطر السماء "شوربة".. ونأكل بالمعاول !!

فيما رأى آخر أن برندة بيتهم مُغطاة بالكنافة .. فينزل من نافذة الشُرفة، ويغطس فى الكنافة ..

أما الشيخ أحمد، فكان يدعو الله تعالى بأن يأمر الولدان المخلّدين، أن يهبطوا من الجنة، ويأتوا إلينا حاملين صوانى اللحم والفاكهة والخمر الحلال .. ونام، وعلى أطراف أفواهنا بقايا ضحك ناشف، وما تبقى من صور اللحم والموز، وكلمات تدعو لأبى الشمقمق ...

ولا سامحك الله يا ابن الرومى الذى تلمّظت أمام الزلابية العباسية الطافحة بالسمنة والسكر .. ولم تأكلها عنوة.. بالسيف .

* * *

دائمًا كُنا نضع جانبًا لبّ الخبز، ونلفّه فى كيس بلاستيكى،

www.alkottob.com

ليحتفظ بنعومته، ونلحف فى طلب تهريب رؤوس البصل من المطبخ .. وما إن ندخل الخيمة بعد العاشرة ليلاً، حتى يدفعنا الجوع إلى البحث عن أكياس الخبز وفحول البصل، ويكون عشاؤنا خبزاً وبصلاً .. وننام! وما إن نستيقظ صباحًا، حتى يكون "الفسفور" قد عبّأ الخيمة .. ويا سلام! على الروائح التى تفوح مع كل حركة، أو تحية أو تثاؤب كسول!

وغالبًا ما كُنّا نُطرّى لقمة الخبز والبصل بكأس شاى ساخن!

– كيف؟

كان بعض المعتقلين يتفنّنون باتقان عمل الفتايل "بابور الورق"، حيث يحضرون لفافة ورق تواليت، ويفردونها .. ثم يغطّون سطح كل الورق بمادة المرجرين "الزبدة" ويعيدون لفّ الورق كما كان .. ويشعلون سطحها.. فتصبح مثل رأس الغاز! ثم يأتون بعلبة فارغة من مطبخ السجن، كانت إحدى المعلبات، ويجعلون لها يداً من أسلاك تلتف حول عنق العلبة .. يدلحون فيها الشاى، ويحملونها مثل القنديل فوق اللفافة المشتعلة .. حتى يسخن الشاى .. وبعد حين صرنا نشرب القهوة الساخنة.. منتصف الليل، وفى الشتاء الذابح! تخيلّوا!!

* * *

محمد روحى الملقّب بـ "أبو سلاح" شاب وطنى صلب وهادئ، يحبّ أشعار محمود درويش، والحديث عن أسرار النساء.. وطالما شربنا سويّة الليالى مع القهوة، التى أعدنا تسخينها على "الفتيلة"

.. وكان أول مَنْ قرأ مسودات "فضاء الأُغنيات" ديوانى الشعرى الثانى فى المعتقل، بعد ديوان "زمن الصعود"، .. وكان قد اقترح علىّ أن أُسميّه "جمهورية الخيام".

.. "أبو سلاح" هذا، كان يحمل، إحدى الليالى، علبة القهوة، المعلقة كالقنديل، فوق نار الفتيلة .. ولم ينتبه إلى أن القهوة كادت تتبخّر لكثرة تقلّبها على النار .. فأشرتُ إليه لينتبه ..!

– أين سرحت يا أبا سلاح؟

ابتسم أبو سلاح، وأنزل قنديل الماء البنىّ من يده، وضرب كفًا بكف .. وضحك، كأنه سمع نكتة طازجة!

– مالك يا أبا سلاح؟ أضحكنى معك ..

قال "أبو سلاح": نفسى أن أبطح الشحرورة وسط الشارع الرئيس الذى يقسم وحدات وأقسام المعتقل .. وأمام الجنود وكل المعتقلين .. أوقفها، وأخلع ملابسها قطعةً قطعة.. وأرفع ... وأضعهما على ... و...

ضحكت .. وضربت كفًا بكفّ .. فيما تعالت ضحكات اثنين آخرين اعتقدت أنهما كانا نائمين.

– ما بكما تضحكان .. يا ملاعين!

اعتدلا فى جلستيهما .. وضحكا من جديد .. لقد كانا يحلمان أن يفعلا فى الشحرورة مثلما حلم أبو سلاح ..

www.alkottob.com

www.alkottob.com

بعد عام تقريبًا، من افتتاح هذا المعتقل الذى شطروه نصفين، الأول لمعتقلى أبناء الضفة الغربية، والثانى لمعتقلى أبناء قطاع غزة، فى محاولة من إدارة السجن لتعميق الفصل، وعدم إتاحة الفرصة لتكريس وحدة الحال، بين أبناء الشعب الواحد.

قلنا بعد عام من افتتاح هذه البقعة الجهنمية، أدخل الصليب الأحمر، ولأول مرّة، علب الحلوى والملبّس، لمناسبة حلول عيد الفطر، إلى المعتقل، وصدرت التعليمات لكل الأقسام أن يقيموا صلاة العيد جماعة فى ساحات الأقسام، ومهما تكن النتائج!! وتمت الصلاة، ولم تستطع إدارة المعتقل فعل أى شىء لتعطيل هذا القرار الجماعى الحاسم! واصطف المعتقلون فى دائرة واسعة، فى ساحة الأقسام، ووقف أحد المتحدثين المميزين ليلقى كلمة فى

المعتقلين، يشدّ أزرهم، ويهنئهم بالعيد، ثم صافح بعضهم بعضًا، وتناولوا حبة حلوى .. لم تستطع بالتأكيد أن تطفئ مرارة الحزن والفقد، أو تمنع بعض الدمعات من التقاطر الخجول .

ونادرًا ما كان معتقل يعلم بموت أبيه أو أمّه أو أحد أقاربه، لصعوبة الاتصال مع الخارج، إلاّ إذا جاءت دفعة جديدة من المعتقلين، أو نقل أحد المحامين الخبرَ إلى السجين! عندها كانت لجنة القسم تفرغ إحدى الخيمات، وتحيلها إلى بيت عزاء، فيأتى كل المعتقلين قاطبة لتقديم العزاء إلى السجين المُصاب .. ويتبرع أحد الإخوة بتلاوة مباركة من آيات القرآن الكريم طيلة فترة تقديم العزاء، ثم يقرأون الفاتحة على روح المتوفى، وينفضّ العزاء، شرط أن يتم فرز ثلاثة من بلديات المُصاب أو أصدقائه، ليظلّوا معه طيلة أيام أخرى، للتخفيف عنه، ومشاركته ساعاته الصعبة الموجعة .

* * *

الكآبة هلاك، ينبغى ألا تصدع لها، وإلاّ دفعتك إلى حافة الجنون، لهذا، عليك أن تخرج من دوّامتها فورًا، وأن تستنفر كل أسباب قوتك وثباتك، وتطردها، كما يُطَرد الشيطان من الروح البريئة .

وعليك أن تشغل نفسك بالقراءة، والأفضل بالجلوس مع مَنْ تحبّ وتستريح، وأن تواجه حالة الاكتئاب بعقلك، وجهًا لوجه، كأنك طبيب نفسك، تجمع كل عوامل الثقة والاطمئنان والقوة والزهو التى بداخلك، وتجعلها متراسًا فى وجه هذا الهواء الفاسد الغامض .. ومرّة تلو أخرى، يتراجع الاكتئاب، ويصبح أكثر

هشاشة وضحالة وخفّة!

والسجن أرض خصبة لهذا النبت الشيطانى الذى يشبه الأفعى، أو الفأر النجس! وكلما تراكمت الهموم، تسللت الأفعى بنعومتها السامة إلى وريد القلب، وكلّما حضرت الأحزان والأسى دخل الفأر قلبك يقضمه بأسنانه المسننة!

والكآبة معادلة كيميائية كاملة، لا تؤثر فى النَفْس أو الروح فقط، بل تحس بحِبال أفاعيها، وهى تلتف حول مضغة صدرك، لتهتك أستاره، وتوقف تدفّقه النورى .. البهيج! بل تخشى أن يحتشد قلبك، فجأة، برغوة الكآبة، فيضيق مجرى التَنفُس، وتصبح على موعد مع السيد عزرائيل!

ولعل حدوث اللامتوقّع، المخيف، أو ما لا نعرف نهايته هو السبب الرئيس للكآبة! ولسوء الحظ أن كل هذا، وأكثر منه، يحدث كل لحظة، ويقع أمام عيوننا، يوميًا، فى المعتقل، ونلمسه على جلودنا وجدران روحنا.. ورغم كل هذا، نُبعد هذه الكآبة بالحياة، بكل مكوناتها، من الكلام .. إلى الغناء، ومن المجابهة إلى التصميم؛ الأمر الذى يعيد صياغتنا، ويجعلنا أكثر قدرة، وخرقًا للعادة، من غيرنا .

* * *

لم تكن الدولة العبرية بحاجة إلى سبب لاعتقال الفلسطينيين، فثمة قانون "يُشرّع" لها كل ما تريد، بدءًا من القوانين العسكرية، وانتهاءً بقوانين الطوارئ البريطانية البائدة، التى تجيز كل أشكال

www.alkottob.com

القمع والاستلاب وإزهاق الأرواح، بدعوى الحفاظ على الأمن والنظام!؟

ويقف "الاعتقال الإدارى" فى مقدمة قوانين الطوارئ، إذ يحق للدولة المحتلة حجز الإنسان ستة أشهر، دون إبداء الأسباب، كما يحق لها تجديد أمر الحجز أو الاعتقال ستة أشهر أُخرى... وأخرى ... دون سقف أو تحديد. لهذا عمدت إسرائيل إلى هذه الحيلة "القانونية"، التى أتاحت لها اعتقال اثنين وأربعين ألف فلسطينى منذ تموز ١٩٦٧ حتى تموز ١٩٩٣، حيث أمضى بعضهم عشر سنوات فى الاعتقال الإدارى، أو عشرين أمر حجز إدارى!

وتذهب الدولة العبرية حتى النهاية، فى لعبتها "القانونية" هذه! إذ تحيل المُعتقل إداريًا إلى المحكمة العسكرية، لتثبيت اعتقاله، إن كان ثمة أسباب موجبة لذلك، أو لإطلاق سراحه، إذا لم يقتنع القاضى بأسباب الاعتقال. لكن التبريرات جاهزة، والمسببات حاضرة ومفبركة ومقنعة؛ الأمر الذى جعل تلك المحاكم صورية مئة بالمئة!

كُنّا نقف أمام "القاضى" العسكرى الذى غالبًا ما يكون ضابط مخابرات، وينبغى أن يكون مع "المتهم" محامٍ ليترافع عنه.. وتبدأ اللعبة – المحكمة، وباللغة العبرية الفصحى... ولّما يطلب المحامى من القاضى كشف أسباب اعتقال موكلّه، يبصق القاضى تلك الجملة الشهيرة التى تنهى المحكمة، ألا وهى "هناك ملف سرّى"! .. وبعد دقائق يصدر قرار تثبيت حكم الاعتقال.

* * *

بعد أن أنهيت الأشهر الستة الأولى، أى الاعتقال الإدارى الأول، الممتد من ٢/١٨ – ١٩٨٨/٨/١٧، تم إطلاق سراحى! .. لكن المخابرات الإسرائيلية، وبعد عشرة أيام، دهمت بيتى ليلاً، وقلبته رأسًا على عقب، بعد أن حطّمت الأثاث، ومزّقت الفِراش ومقاعد الكراسى، وصادرت كمية كبيرة من الكتب، وأخذتنى معصوب العينين، وبعد شهرين من "الحجز الإدارى"، كان ثلة من المحامين يترافعون عنّى فى المحكمة، شأنى شأن الكثير من المعتقلين، ولّما بيّنوا للمحكمة أنه لم يكن أمامى وقت كاف "للاعتداء على النظام والأمن" لأننى، ببساطة، كنتُ معتقلاً، أجاب القاضى بأنه ثبتت على المتهم حيازة مواد تحريضية ممنوعة! ولّما سأل المحامون عن تلك المواد، قال القاضى: ديوان شعر ذو مضمون عدائى ضد دولة إسرائيل، ومؤلّفه المتوكل طه. وعندما حاول المحامون إيضاح الأمر للقاضى بأن مؤلف الكتاب هو نفسه الذى يقف أمامه، رفع القاضى نظارته عن عينيه، وقال: إذًا لدينا سبب آخر لتثبيت حجزه واعتقاله.

www.alkottob.com

معطف الليل من هواء ! يفرد جناحيه وسادةً لإعادة ترتيب الأشياء، أو ليأخذ العيون إلى رحلة الغموض، أو الموت المؤقّت . والليل يبسط حريره البارد تحت رأس المُتعبين، فيمتصّ الغيظ والعرق المتيبّس، ويعرّى الغافى من كل حباله وقيوده، ويُطْلقه جناحًا يَغمس ريشه فى الشهوات الممنوعة، أو ليتخطّى أسوار النهار، أو ليُخرج كل الرمل بصرخة كابوس حاد، واهتزاز الماء المتصبب من الجبين .

والليل يبدأ مشدودًا .. لينتهى بالركود الهادئ .

نتمطّى على الفِراش الفقير، ونسند رقابنا على جدار مُرتّب، فيظلّ الجسد فى مكانه، فيما تذهب الروح إلى أحلام يقظتها ...، وتعود لتصطدم بالنتوءات الصعبة، والمشاهد المكفهرة الخشنة .

ماذا حلمت أيها الراكض خلف خيط الوهم اللذيذ، هل وصلت

www.alkottob.com

إلى البيت، وكشفت الغطاء عن الجسد الرَخص البضّ.. وماذا بعد؟ هل أكملتَ الصورة التى ستظل ناقصةً ما دامت الحياة..؟

تتعب الروح من مشاويرها البعيدة .. فيتسلل الوسن إلى صحنين ذابلين، هما عيناك .. وتنام!

* * *

"إيتسك" و"راز" ضابطا الأمن فى معتقل "أنصار ٣"، يعرفهما المعتقلون بمشيتيهما وهما يتبخترات بين الأقسام، كل حينٍ وحين. كان كثير من المعتقلين يتشاءمون من هاتين البومتين الأنيقتين!

كان ضابطا أمن المعتقل يُرسلان فى طلب بعض السجناء، وبالذات أولئك الذين ليست لهم تجربة فى عالم السجن والاعتقال، وأساليب الدهاء فى التحقيق والإسقاط ... ويشنّان حربًا نفسيّة على "المطلوب"، ويضعانه فى أجواء مخيفة وترقّب طويل، حتى تصبح "الفريسة" سهلة الوقوع فى الفخ! ثم يُدْخِلان "المطلوب" إلى غرفة مكيّفة نظيفة، ويجلسانه على مقعد مريح، وأمامهما قنينة ماء مثلّجة وكوكاكولا وسجائر فاخرة، ويبدآن معه التحقيق؛ فواحد منهم "يشدّ" والآخر "يرخى" ... وتستمر لعبة الترهيب والترغيب ... ثم يطلبان منه أن يتخلّص من سعير المعتقل وأيامه القاسية، ويهوّلان الأمور له، ويهددانه، ثم يدّعيان أن لديهما أخبارًا تفيد أن المعتقلين يشكّون به، وينظرون إليه كمشبوه! ... ثم لا يطلبان منه أن يتعامل معهما مباشرة، بل يقولان له: سنُطلق سراحك فى المحكمة، وسنلتقى معك فى أى مكان تريده.

* * *

لقد أفادت التقارير أن النسبة الغالبة من "المطلوبين" انتصروا على "إيتسك" و"راز" ... ولم يقعوا فى مطبّ السقوط. وقد تنبّهت قيادة المعتقلين إلى الأمر مبكرًا، فبدأت شرح كل هذه الأمور للمعتقلين المستجدين، على طريق تحصينهم، وخلق مناعة كافية لديهم، ليستطيعوا مواجهة ذلك الموقف! ثم، وبطريقة غير مباشرة، تم فرز مجموعة من المعتقلين المجرّبين، لالتقاط مَنْ يعود من المقابلة... للاستفسار منه عمّا جرى ودار... ويرفعون تقريرًا للجنة الأمنية المعنية بالأمر، لمتابعته، أو لاستخلاص العبر منه.

* * *

كان ثمة رأيان، للمعتقلين، يتغالبان، لتسيير أمور السجناء: الأول يسعى إلى ضبط كامل الوضع فى السجن، بطرائق هادئة، بعيدة عن إثارة الهوَس الأمنى والضبط الحديدى، بل الدفع بالتى هى أحسن، ورصد المشبوهين، دون فتح زوايا للتحقيق معهم وإخافة ضعاف القلوب والنفوس، والعمل ما أمكن لعدم الانجرار لمصادمة إدارة السجن، وخلق حالة مشدودة حذرة، كلها ترقّب، وطوارئ... والرأى الثانى، يسعى إلى تأزيم العلاقة مع إدارة المعتقل، ومصادمتها، والتحقيق مع المدسوسين، ومعاقبتهم، وخلق أجواء صارمة، وقيود حاسمة وتعليمات رادعة لضبط كامل الوضع فى السجن!

وأعتقد أن الرأى الأول هو الأكثر عافية وصحة وذكاء، وهو الذى ساد وغلب! وهذا ما جعل مُناخ الحياة فى السجن مُحتملاً

www.alkottob.com

ومعقولاً، وغير منفّر للمعتقلين الجدد، الأمر الذى جعلهم، وبعد الإفراج عنهم المرة الأولى، يعاودون نشاطهم الوطنى خارج السجن، ويعودون ثانية، مطمئنين، راضين مرضيّين إلى "أنصار ٣" أو غيره من المعتقلات.

* * *

مدينة العذاب، "أنصار ٣"؛ هذا المعتقل الصعب أظهر وأخرج أجمل ما فينا، نحن المعتقلين الفلسطينيين، كما أوضح أسوأ ما فى الجنود الإسرائيليين ... لأن مهمّتنا كانت تقضى أن نتربع على عَرش الزلزال، مثلما دفعتهم أوهامهم إلى التشبّه بأبشع المخلوقات، وتمثّل أكثرها دموية!

ولعل ذهابنا بالجَمال إلى أقصاه، هو الذى خلق لدينا قوّة إضافية! ولا أعنى جَمال المكان، بقدر ما أعنى عيوننا الجديدة ورؤيتنا العميقة المختلفة، التى رأت المكان، وسبرت غوره، وأحاطت به وأدركته، واجترحت الأشكال والآليات المناسبة، للتعاطى معه، بحيث ظل المكان تحت سيطرتنا ما أمكننا ذلك.

والجمال داخلى بالضرورة، يتعلّق بتجاوز نقاط الضعف فينا، بعد التوقف أمام الخاصرة الضعيفة، أو الثغرات فى تربيتنا الجمعية.

والجَمال، هنا؛ قوةٌ حالت دون تفريغنا، من محتوانا النضالى والإنسانى والثقافى، وخلق حالة من العدمية فينا ... ورافعةٌ اعتلت بنا، فوق مشاريعنا وأحلامنا الفردية؛ بدءاً من الغرائز المكتسبة، وانتهاءً بنفى الخوف، فى ظل التماهى الجماعى، والتشابك الدافئ

الذى طرد الانكفاء والتراخى والإحساس المرضىّ بالوحدة.

* * *

بدأت رسائل الأهل تفتح لنا نافذة نتنفّس من خلالها، وأصبحت صور الزوجة والأولاد تطمئننا عليهم، وشيئًا فشيئًا، بدأت الخيمات تعجّ بالصور المعلّقة بإطارات مصنوعة فى المعتقل، كُلٌّ يُعلّق صور أسرته فوق رأسه، وغالبًا ما تلاحظ معتقلاً يسرح مع تلك الصورة المعلّقة بصمت صاخب أمامه! كأنه يقول:

يا امرأتى التى أهوى
أُحبّك كالخرافة والعَذابْ!!
ومُناىَ أنْ أمشى إلى كَسَلِ المَفاصِلِ
بالزوابعِ والرُّعودِ
وأنْ أرُشَّ على نُعاسِ عيونِكِ النَّجلاء
شهْدَ البرْقِ
أوْ هَلَعَ التَّوجُّعِ والتلذُّذِ والغيابْ
وأُحَرِّقُ الزَغَبَ الطرىَّ، وأشتهيه
وأُشعِلُ الصَّدرَ الشهىَّ، وأشتهيه
وأُوقِدُ الجَسَدَ المُبلَّلَ بالأوارِ، ويَشْتَهينى
ثُمَ أُوقِدُهُ ... لنغرقَ فى الضبابْ
وتطولُ غفوتُنا
لنرجِعَ كى نذوبَ معَ التموّجِ
تسحقينَ الشمسَ فى ظهرى

www.alkottob.com

وتسكننى البحارُ الصاخباتُ
أروحُ مع دوَّامةِ الأضواءِ
تصهرُنى الشراسةُ
أرتضى موتى
وأعبدُ فيكِ ريحَ الندِّ والغاباتِ
أخلعُ وجهىَ الشرقىَّ
ما دامتْ تضاريسُ الخصوبة
لم تُدجِّنْها الخشونةُ والصلاةُ ...
أحبُّ دفنى فيكِ يا هذى
خُذينى، وافتحى كلَّ المعابدِ والمُهودِ
فإننى طفلٌ يُخربشُ فوقَ ألواحِ الإلهِ
طقوسَ مولدهِ الشقىِّ
أُحبُّ تشييعى على بحرِ الرَّذاذِ
اللاّهبِ الوردىِّ
أهبطُ فى بهاءِ اللذَّةِ القُصوى
ويجذبنى القرارُ ...
يطيبُ منْ فمكِ الرِّضاب .
ويكونُ يا امرأتى
بأنا قد زرعنا عشقَنا طفلاً
تزيّا فى الحَنايا مثلما شِئْنا
فنامى كى يتمَّ الحملُ

فالحَمْلُ نُضوجٌ وشقاءٌ واصطحابْ ..
وَغداً هُزّى جذوعَ النخلِ
إن شقَّتْ بُروقُ الألمِ الصَّاخبِ لحمَ القلبِ
طوبى لرِهامِ العَرقِ الفضىِّ
ينسابُ معَ الأوجاعِ
لا بأسَ على الآهِ
ودمعِ الجُرْحِ
لا بُدَّ من الصرخةِ حتى نكسرَ الصمتَ
ولا بدَّ من الموتِ لنحيا
فإذا كانتْ فتاةً
خضِّبيها بدمِ الجرحى ليومِ العُرْسِ
أو كانَ فتىً
فلْتزفِّيهِ إلى عُرسِ الشبابْ .
واجعلى أثوابَهُ من رايةِ الشعبِ
احمليهِ بين كفيكِ لمتراسٍ عنيدٍ
واغسليهِ بدخانِ العَجَلِ الشمسىِّ
قومى واسمعيهِ أُغنياتِ النارِ
قومى عمِّديهِ بجلالِ الثارِ
قومى واجعلى أيقونةً من حجرِ صَلْبٍ
على صدْرِ صغيرى ...
وفى فترة الاعتقال الثالث، كان موعد ولادة زوجتى! وربما لم

www.alkottob.com

أكن قلقًا عليها، لأنها محاطة بعائلتها وأهلها، وباهتمامهم الحريص ورعايتهم الكبيرة، ودلالهم الواضح، ولأن زوجتى من النوع الصلب الذى يستوعب تغيّرات الحياة، ولا يَنكسر أو يَنهار أمام حدث هنا أو أمر هناك! بل إن مرونتها ووعيها وتجربتها فى الحياة علّمتها أن تكون واقعيتها سببًا لصالحها ومعها، وليس عليها.. وبعد أيام وصلتنى رسالة تبشّرنى بميلاد "نوّار" الآية الثانية، على ألواح قلبى، بعدَ أن ملأت "هزار" حياتنا بهجة وحيوية!!

.. هل أَتوكَ ليخبروك
بأَنَّ نوّار البهيّة قد أتتْ
ما أجملَ الأطفالَ!!
آهٍ لو تراها .. تُشبهك
عينان من عسل البحار
وشعْرها حنّاءُ أعراس الهزار
لكنّهم أخذوكَ منها،
من ضفائرها الصغيرةِ،
من مُناغاةِ الشفقْ ...

* * *

- هل تذكر تلك الليلة؟!

كانت متجاوبةً دون اتفاق مسبق، كأن ورقة الليمون التى طبعتها على بوابة الدار، و"الصمْدة" وتلك الأغانى الهائجة الحلوة، كُلّها تؤذن لأن يدخل الرجل على زوجه، فتخلع، لأوّل مرة، كل ثيابها،

وتندسّ تحت حرير الترقّب واللمعة الخارقة، التى ستجعلها امرأة من جديد، وتطوى سنوات الفتوّة، وتضعها على مدرج الأمومة .. والغرق الحلال!

- أين أنتِ الآن .. أما كان بمقدور أمكِ أن تلدك طائرًا يحطّ أنّى شاء، ويهبط حيث ربابة الشهوة الجارحة!

عليكَ أن تنسى، وأنت تذرع دروب "جمهورية أنصار"، كل النساء .. وأن تُبقى نفثاتك المحمومة، وخيالاتك الفوّارة، فى ثلج العمل، وأن تُحنّط صهيلك، إلى الكشْف الآتى..

- لكنك تتحسس فى الليل عنق النار، وتخشى من فيض العسيلة، ودفقة صبابات الخيال!

سأحبس النار فى القمقم، حتى ييسر لهذا الجان، مَنْ تحكّ فانوسه السحرى .. وبعدها، ليكن الطوفان ..

- ذكّرتنى بالجنّيات اللواتى يعشقن الرجال، لماذا لم تعشقنى جنيّة مليحة، وتأتى بطاقية الإخفاء، لتطفئ هذا الموقد؟؟ أين أنتِ أيتها الجنيّةُ .. تعالى .. واصحبينى إلى مدن النحاس البعيدة .. الغارقة

فى قيعان الماء ..

* * *

كان بعض الذين أُفرج عنهم، يبعثون بصورهم وهم يجلسون قبالة "صدر منسف"، أو "كوم لحمة مع الرز"، أو وهم يلتهمون "صدر دجاجة" ... ليغيظوا بها أصدقاءهم الذين خسروا أكثر من

www.alkottob.com

عشرين كيلو غرامًا خلال الأشهر الستة الأولى فى السجن.. وأصبحوا رشيقين أكثر من اللازم، ويصلحون "مانيكات" رجّالية لعرض الأزياء! كما كان يقول جمال الديك هذه الجملة .. دائمًا، ويُوجّهها لعلى الرجوب السمين "الناصح"، كلما رآه!!

وخوفًا من أن تصبح لنا جدائل وضفائر مثل الخنافس أو الجييز أو البوهيميين، وخوفًا من انتشار القمل والبق ... حرصنا على حلق شعر رؤوسنا، وبالأمر التنظيمى الصارم! وكان حلاّق القسم (حسام الحرامى)، ابن قرية جيوس الواقعة شمال شرق قلقيلية، وهو صاحب صالون "الناطور والحرامى" فى مدينة طولكرم! كان شابًا مهذبًا ذوّاقًا، ولا يشبه أخاه غسان الحرامى، الذى تعتّق فى الظُرْفِ والسجون.. وجاءنا، هنا، ليكون، حيثما حلّ، سبب الضحك العالى، وخفّة الظلّ، وسرعة البديهة الفكهة الحاضرة.

وبعد أن يُنهى "الحرامى" حلق رؤوسنا، يقوم بتسليم عدّة الحلاقة لمسؤول المخزن الجندى الإسرائيلى "شوكى" الذى كان يخاف، لسبب غامض، من قدورة موسى، مُمثّل المعتقل فى المطبخ والمخزن!

* * *

لم أكن أرغب فى توضيح سبب خوف "شوكى" من قدورة موسى، لكننى سأقول... ومهما يصير .. يصير!

كان قدورة أو "أبو موسى" يأخذ من المحامين مبلغًا من المال، ثم يعطيه لـ "شوكى" ليشترى لنا أجهزة راديو صغيرة، حيث يأخذ "شوكى" ثلاثة آلاف شيكل، ليشترى لنا أجهزة بستمئة شيكل،

والباقى يأخذه لنفسه، الأمر الذى وفّر لكل الأقسام أجهزة راديو وبطّاريات. أى أن أبا موسى "كَسَر عَيْن" "شوكى" ... وأصبح يطمع فى أن يشترى لنا ما نشاء، شرط توفير مبلغ مُغرٍ من الشواكل!

كانت اللجنة الإعلامية تتسلّم المذياع، وعليها أن تسمع نشرات الأخبار، وتلخّصها، ثم يتم تعميمها على الأقسام، وكان إبراهيم رمضان المسؤول عن كل أجهزة الراديو ومتابعة أحوالها، وإخفائها .. وبهذا لم ننقطع لحظة واحدة عن المحيط المتفجّر الطاحن! وهنا لا ننسى أن نشير إلى الصديق الصحافى سالم أبى صالح، الذى كان يوحى بعظمة وأهمية وخطورة المهمّة التى يقودها وهى "سياقة" المذياع، وقيادة الدفّة الإعلامية، ونشر رذاذها اللامع الحلو (التقارير والأخبار) إلى كل الجهات، عدا قيادته القسم الذى استشهد فيه بسام السمودى يوم ٨ / ١٦ المشؤوم ... وجدع يا أبا صالح!

* * *

دخل "ألبرت" اليهودى، الذى لم يعد ليبيًّا، مع أكثر من مئة جندى، أيديهم على الزناد، فجأة، إلى القسم! وأمروا المعتقلين أن يجلسوا لـ "عدد" استثنائى، فجلس الجميع، وراح الجنود يفتشون بين الأبراش والبطانيات وأكياس ملابسنا الداخلية ... وأخيراً عثروا على "المذياع". وتم استدعاء شاويش القسم منير العبوشى للتحقيق معه عن كيفيّة دخول المذياع، رغم تلك الإجراءات والتفتيشات! وكاد ألبرت يفقد أعصابه، ويصيبه الجنون: كيف أدخلتم الراديو؟؟... وأخيراً طلب ألبرت من منير العبوشى أن

www.alkottob.com

يعلمه كيف تم إدخال المذياع، ووعده بأنه لن يعاقب القسم بالسجائر أو بمنع زيارة المحامين أو بوقف الرسائل، لكن منير العبوشى وجد جوابًا مقنعًا وهو أن الجنود الإسرائيليين وضعوا هذا الراديو بين أمتعتنا، ثم ادّعوا أنهم وجدوه ...

ولّما سأله ألبرت: ولماذا نفعل ذلك يا عبوشى؟

قال له منير: حتى تعاقبونا يا ألبرت!

وتمت معاقبة القسم أسبوعًا كاملاً بالسجائر والقهوة والرسائل وسماع "صوت إسرائيل".

* * *

سلك معدنى شديد يلتف حول رأسك، يشتدّ، ويضيق.. فتنهض من نومك، وتجلس حتى تتأكد أنك لن تموت الآن!

وتحاول أن تتشاغل، وأن تفرك صدغيك .. وتنظر حولك، فترى نزلاء الخيمة نيامًا، وموسيقى الشخير العالى تتعاكس وتتقاطع، كأنها أوركسترا موزّعة بين شخير هذا وشخير ذاك ..

– فكيف سيبارحك الأرق، وينقطع السلك المعدنى، وتنام؟

تشعل السيجارة الأخيرة، وتنظر لعلّ أحدًا من الزملاء، أصابه الأرق، لعلّكما تتسامران .. فيقطع تفكيركَ صوتُ الموسيقى السفلى التى، غالبًا، ما تعقبها رائحة البيض الفاسد!

إذًا، كيف ستنام!

اللعنة على المعتقل، وعلى الليل والأرق ..

تحاول أن تدفن رأسك تحت البطانية الوسادة، فتختنق من رائحة

الرطوبة المشبعة الثقيلة .. وترفع رأسك .. وتبقى بين يقظة وصوت وشخير ورائحة .. حتى تنكسر قشرة الليل، ويبدأ الديك البعيد بإيقاظ الشمس.. وبعد ساعة، ربما، تستيقظ مضطرًا لـ "العدد" ..

تمشى متثاقلاً، كأن رمحًا قد فخت جمجمتك، واستقرّ فى جبهتك، أو كأن رأسك قد فارقك من صداعه المهلك، وشظاياه الحارقة ..

يا إلهى! ما الذى جاء بى إلى هنا!؟

www.alkottob.com

لم تكن "الجندرمة" قادرة على قتل تلك الأفعى التي يتحدثون عنها، غير أن عاملي التنظيف والطبّاخين الذين كانوا يحملون بقايا الطعام والخضراوات في أكياس وسلال لإلقائها في الحفرة العميقة التي وجد الجميع أنها مناسبة لاحتواء كل البقايا والفضلات البشرية، كان هؤلاء العمال يسمعون صوتًا أقرب ما يكون لصفير الزوبعة، قادمًا من جنبات الحفرة ومغائرها وشقوقها الكثيرة والعميقة، لكنّ جنديًا انكشاريًا ابيّضّ شَعره فجأة، أقسم على المصحف، وهو ينتفض راجفًا، أنه رأى أفعى بحجم مئذنة قريتهم.

في المساء، أمر الضابط العسملّي بإشعال نار ضخمة حول الحفرة، وبعث في طلب شيوخ القبائل المحيطة ليتبيّن قصة أفعى تلك الحفرة. أجمع شيوخ القبائل؛ على أن هذه الحفرة انشقّت فجأة إثر

www.alkottob.com

www.alkottob.com

رعدة شتوية صعقت الأرض فخسفتها، وأحدثت فيها هذه الحفرة التى لا يعرف أحد قرارها، لهذا سُميّت المنطقة بـ "الحفرة" أو "الجورة". ولّما أرادت القوافل المتجهة شمالاً من سيناء، التزوّد بالماء، كانت تُعرّج على هذه الحفرة التى قيل إنها ظلت تفيض بمائها حتى سنوات قريبة. لهذا السبب -قال الشيوخ-: أقامت الدولة العثمانية مركزاً إلى جانبها كنقطة حراسة، سُمّيت بـ"مركز الحفرة" أو "الجورة"، بل إن شيخًا يافعًا أضاف: "إن ماء الحفرة قد غار فى الأرض منذ أن أُقيم أول مركز للجندرمة فى هذه المنطقة!»

وعندما جاءت بريطانيا، تسلّمت المركز والحفرة، فأطلقت على المركز اسم (عوجا حفير) وجعلت الحفرة مكبًّا للنفايات ومصبًّا لشبكة المجارى، بل مدفنًا سريعًا وسهلاً لكثير من الجنود البدو الذين رفضوا أوامر الضباط البريطانيين، أو الذين جُرحوا فى الحرب من أبناء العرب والأقليات والهنود!.

ولّما وقعت الدولة العبرية على هذه الأرض، يُقال إنها ألقت بجثث الأسرى المصريين فى قاع هذه الحفرة، وأبقتها، طبعًا، مكبًّا للنفايات ومصبًّا للمجارى.

ويبدو أن الأفعى التى يتحدثون عنها، وجدت ما تأكله طيلة سنىّ "العُسمليّين" والانتداب والاحتلال اليهودى، غير أن اليهود، رأوا، ربما، الأفعى فابتعدوا قليلاً وبنوا السجن الذى أسموه "السجن السابع"، وضربوا سياجًا حول الحفرة، لكنّ عددًا من الجنود اليهود اختفت آثارهم، ولم يجد ضُبّاطهم تفسيرًا لغياب جنودهم الغامض،

سوى أن الصحراء ابتلعتهم، رغم أنهم يدركون أن قوّة غامضة اختطفتهم وابتلعتهم، وربما يكون هذا من فعل الأفعى، لكن الضباط تطامنوا فيما بينهم، ولم يذكروها بسوء.

* * *

كان أحد المعتقلين قد ازدحم الماء بجسمه، فاستيقظ منتصف الليل، وتوجّه إلى وحدة المراحيض الواقعة خلف الخيام أقصى ساحة القسم، لكنّه، فجأة، توقّف وأُغمى عليه، ولّما تنبّه شاويش القسم لما وقع له، حمله إلى خيمته ورشّ على وجهه الماء، وخضّ بكفه خدّه غير مرّة، لكنّ الشاب، وقبل أن يستيقظ، تمامًا، كان يهرف بكلمات تردّد فيها قول: الأفعى ... الأفعى.

بعد قليل لم يصدّقه أحد!! قال، وألحف، وأقسم، وأغلظ، أنه رأى أفعى طولها أكثر من عشرين متراً وارتفاعها يطاول علو السياج!

* * *

كان الصيف قائظًا ونسائم ليله تهمس بخجل، تحمل بعض الصبا، فينتعش النائمون الذين تمدّدوا على "بروشهم" دون غطاء، لكنهم استيقظوا واحداً تلو الآخر، على صوت جاءهم من بعيد، لكنه موحش وغريب، ويبدو كأنه يفحّ من تحت رؤوسهم.

اعتدلوا فى جلساتهم، وظلّوا ساهمين، والصوت يتجاوب مع صداه... وبقوا على هذه الحال حتى انقطع الصوت واختفى!

ما هذا الصوت؟ قال بعضهم: هذا صوت نحيب قلب الأرض

www.alkottob.com

التى تنذرنا ببركان قريب .

وقال البعض : هو صوت طير خرافى جاء ينشر ريحًا جديدة ، ستغطى الصحراء وتحرقها من جديد .

وقال البعض : هذا صوت آلات وماكينات اخترعها الاحتلال الإسرائيلى ليُرهبنا ويقضّ مضاجعنا ويخيفنا .. فلا تقلقوا ...

وقال البعض : هذا صوت أفعى عمرها ألف عام ، مُغطّاة بالريش كما الطاووس ، ولها قرنان كالتيس البرىّ ، مثلما لها فى كل فصل رجلٌ أو دابّة تبلعها دفعة واحدة ، وتخلع ثوبها مرّة كل عام ، تسكن هذه الأفعى مغائر البرق والصواعق وتلد مع الرعد ، منذورة إلى يوم الدين ، لتكون نموذجًا لأفاعى يوم الحساب . لا تأكل إلاّ قاتلاً أو قاطع طريق ، وتنتحب كلما بكت أرملة أو جاع يتيم ، دمعها صناديق الذهب المخبّأة فى خواصر الآبار والمغائر والجبال ، وغضبها وباء البلاد الذى لا يُبقى ولا يذر ، تموت إذا ما استتب العدل فى المعمورة ، وتدفن عظامها حتى لا توخز ناقة تحمل حنّاء عروس ، تتقن كل لغات الأرض فهى صنو الملك النبى ، ولديها علمُ الجان الذين حبسهم سليمان فى قوارير النحاس والزجاج ، دخانًا فى قيعان المحيطات ، لديها مرونة التحوّل إلى عروس أو رجل أو عجوز أو فرس أو ما شاءت ، لهذا تتحوّل إلى امرأة تطرق باب الأيتام لتحضنهم وتمسح رؤوسهم بريش يديها وتحمل لهم الطعام ، وتقف حارسة للشيخ الذى قتلوا أبناءه ، وتوقد له الحطب وتحدّثه عن صبر الرجال ، وتقف فرسًا تحمحم بين يدى الفارس الذى اغتصبوا أهله وقافلته .

تنسرب مثل الحلم إلى عينىّ التاجر الأمين ، فتحذّره من السطو القادم ، أو الحريق المعدّ ، وتهمس فى أذن العروس فتعلّمها لغة الريحان وطاعة الجسد .

تصعد إلى السماء الدنيا ، فتحمل غيمة مكتنزة وتبعثها مطرًا يطفئ نار الاعتداء ، أو تنخرط مثل اللولب دوّامة فى وجه قافلة العبيد أو النخّاسين ، ترقص على دفوف البيادر وليلة ميلاد هلال العيد ، وتبكى إذا احترق قلب والد ، أو انشلخ عقد الدار .

* * *

الآن يعلم المعتقلون مصدر النحيب الغرائبى الذى أحاط بالأقسام ليلة سقوط الشهيدين فى "أنصار ٣" . واليوم يدركون سرّ قدوم الغيمات التى أنزلت ماءها فى عزّ صيف الصحراء فابتلّ رمل الطرقات ، وطابت هذه المعمورة الصغيرة لقاطنيها . ولهم أن يعرفوا مَنْ الذى كان يفرد ريشه فى السماء البعيدة ، فيظلّل الأسرى ، ويردّ شأفة الشمس الوهّاجة عنهم .

وجاءت الساعة التى تكشف عن وجه ذاك الذى كان يعبئ براميل الماء الفارغة ، والمعتقلون نيام ، أو الذى كان يمسح عرق الحُمّى وقطرات الوجع عن جبين المرضى ، أو الذى كان يجمع الملابس (الغيارات) المُتّسخة من كل الخيام فيغسلها .. ويطويها نظيفة عند رؤوسهم .

* * *

كُلّما توجّه إلى وحدة المراحيض ، يتوجّس خيفةً من أنْ يقع !

www.alkottob.com

وعلى ما يبدو، فإن الحرص الزائد يؤدى إلى نتيجة معاكسة. فما إن مغصت بطنه، وتلوّت أمعاؤه، حتى فتح باب الخيمة، ودلف إلى صندوق الزنك الكبير، ونسى أن يغلق باب المرحاض وراءه... وجلس ينتع ويشدّ على ليف بطنه، ثم انتبه إلى أن الباب مشرع، فحاول، وهو مقرفص، أن يردّه بيده...

فى المرحاض المجاور كان معتقلٌ آخر يقضى حاجته، سمع ارتطامًا وبقبقة وتهويشًا وصراخًا مكتومًا، فاعتقد أن زميلاً له وقع فى الجورة، فقطع جلسته، وخرج مفزوعًا يخبر المعتقلين عمّا سمعه!!

وما هى إلاّ ثوان، حتى كان كل معتقلى القسم يحيطون بالمراحيض، لكنهم لم يروا شيئًا، وبدا سطح الماء، الطافح بالوسخ والغائط والورق الذائب المتفسخ، ساكنًا! كان لا بُدّ من أن ينظر مسؤول كل خيمة فيحصى عناصر خيمته، ويعدّهم فردًا فردًا ... والمفاجأة كانت أن أبا ضحى السودانى غير موجود؟!

– إذًا، أبو الضحى هو الذى سقط فى الجورة؟!

قالوا: انظروا بُرْشه لعله نائم...

– بُرْشه فاضٍ ...

ماذا سنفعل، قال شاويش القسم؟؟!

* * *

لاحظ الجنود أن ثمة جلبة حدثت فى القسم، فتوجه الضابط المناوب وسأل الشاويش عن الأمر؟ لكن الشاويش، وبعد أن أمر المعتقلين بالدخول إلى الخيام، أخبر الضابط الإسرائيلى أن شابًا

مريضًا بالإسهال هو سبب هذه الضجّة، لكنه تحسّن!

ذهب الضابط، ودخل المعتقلون إلى خيامهم، مع الثانية بعد منتصف الليل!

بعد ساعة أو يزيد، خرجت لجنة القسم بقرار نهائى، مفاده: أن يتم إبلاغ إدارة السجن بسقوط أبى ضحى فى الجورة، ويتم فرز ثلاثة من الشبان، لتقديم شهادة (إفادة) إلى إدارة السجن، تؤكد أنهم شهود على سقوط أبى ضحى، وهو يقضى حاجته، وعلى شاويش القسم أن يبلغ الضابط الإسرائيلى المناوب بذلك، قبل أن يتم إجراء "العدد" الصباحى بعشر دقائق.

* * *

خرج شاويش القسم وأعضاء اللجنة، وتوجهوا إلى المراحيض التى انقطع زائروها، لعلهم يروا جثة أبى ضحى، أو أى أثر يدلّ عليه ... فعادوا أدراجهم، إلى الخيمة، ثانيةً، ليجدوا النقاش المحتدم بين المعتقلين على حاله ...

– يجب أن ننقذه، وبالإمكان أن نربط أحدنا بحبلٍ نصنعه من قمصاننا، وندلّى شخصًا منّا ليبحث عنه، ويخرجه...

– هذا مستحيل، لأنه انتحار .. ولا فائدة من إخراجه بعد ساعتين، لأنه مات وشبع موتًا... ولو أردتم إنقاذه، لفعلتم ذلك فورًا.

– يا إخوان! لو مات أبو ضحى لطاشت جثته ... وإن عدم ارتفاعها دليل على أنه حىّ...

www.alkottob.com

– حىّ؟ ماذا تقول؟ هل جننت؟ فهو إنْ لم يُمت غرقًا، فقد مات من الرائحة والقرف..

– فكّروا كيف سنغسل جثته، ونكفّنه، ونضمن أن توصله إدارة السجن إلى أهله، شهيدًا معزّزًا مُكرّمًا ... واقترح أن نفتح باب العزاء منذ الصباح، ولمدة ثلاثة أيام!

– يجب أن نضرب عن المراحيض، كما نضرب عن الطعام، حتى يتم تحسين وضع المراحيض، ونتجنّب سقوط آخرين.. أية ميتة لقيتها يا مسكين.. يا أبا ضحى؟؟ الله يرحمك!

– هناك ثلاثة معتقلين من دير السودان، وواحد منهم هو قريب أبى ضحى، فى القسم الثانى، يجب إبلاغهم بالأمر ... وتقديم العزاء لهم ...

– يجب، أولاً، أن نحقّق مع الشاب الذى أبلغ عن سقوط أبى ضحى فى الجورة، لنتبيّن علاقته بالأمر، ونسأل من أين هو، وهل ثمّة عداوة بينه وبين أبى ضحى...؟!

– يا جماعة! صلّوا على النبى.. الصباح رباح، اذهبوا لأبراشكم وناموا... وغدًا، لكل حادث حديث.

* * *

ربما نام بعضهم أو كاد ... ومع الخيط الأوّل من الفجر، دخل شاويش القسم إلى الخيمة الأولى لإيقاظ الطبّاخين، الذين يجب أن يتوجهوا إلى مطبخ المعتقل لإعداد وجبة الفطور، قبل "العدد" بساعتين.. ومن ثم توجّه إلى الخيمة الثانية لإيقاظ رئيس لجنة

القسم، الذى ذهب إلى خيمته ولم يعدّ، فوجده ممدّدًا بحذائه على البرش، دون غطاء ... لكزه بقدمه، ونادى عليه ... وفجأة دخل شاب، وأخبر الشاويش أن أبا ضحى نائم فى برشه!!؟

تحلّق المعتقلون حول أبى ضحى ينظرون إليه ويتفحصونه، كأنهم يرونه لأوّل مرّة، وهو مبتسم، يؤكد لهم أنه لم يبارح بُرْشه، وكان نائمًا... ولم يسمع شيئًا، ولم يذهب إلى المراحيض!!!

انفضّ المعتقلون، وانفردت أساريرهم، وظنّوا أن كابوسًا جماعيًا أصابهم، أو أنهم كانوا مسرنمين...

اختلطت ظنونهم، وقلّبوا شفاههم .... ولم يجدوا بُدًّا من تصديق ما قاله الرجل عن نفسه!

– فى الأمر ريبة!؟ قال شاويش القسم لنفسه، ثم سأل أبا ضحى: أين كنت الليلة؟

أجاب: فى خيمتى وعلى بُرشى...

– لم تكن فى خيمتك، ولا فى بُرشك! بل إن رائحتك تضجّ بالبارفان، وها هى ذقنك ناعمة، كأنك خارج من حمّام تركى، وملابسك نظيفة ومكويّة ... ألا تريد إخبارى يا أبا ضحى، أم أنك تعتقد أننى غبى؟!

ابتسم أبو ضحى، وشدّ على يدّ الشاويش، وأكّد له أنه سيخبره بكل شىء، بعد الإفطار.

* * *

جاءتنى، كالعادة، بعد أن نام الزملاء، وقبل أن تحملنى تحت

www.alkottob.com

جناحها، لفّتنى بأوراق وردة بلون الأرجوان المخملى، وأخذتنى ... وشعرت أنها غطست فى بحر، ثم مررنا بسراديب طويلة معتمة، لنُطلّ، بعدها، على مدينة منطفئة ساكنة، كأن أهلها عميان نيام أو أموات، مدينة، لا ترى فى أفقها إلا نتوءات قباب، وشبه مآذن خرساء مهجورة، شاسعة، حتى لا ترى آخرها، كانت سطوحها كابية كالمرآة المهترئة، باردة، لا غيمة تعلوها ولا غراب، شوارعها مهجورة، والصمت المُفزع يعوى أمام حوانيتها المقفلة، لا شجر يتمايل فيها ولا ماء، يضىء غَبشَها قمرٌ رمادى كئيب، مدينة موحشة، كأنّها بُنيت تحت سقف مغارة خرافية، وكأنّ سقف المغارة قد طار، فظلّت مُحاطة بجدرانها المسكونة بالعظائيات والعشب المتشابك الهائش، وفى جحور تلك الجدران الجبلية، تتقافز السناجب والعرسات والجرذان والخفافيش المعتمة.

قالت لى: هذه المدينة يسكنها مصّاصو الدماء الذين يجرّون ملابسهم السوداء الطويلة خلفهم، كأنهم يكنسون الشوارع بها، فى الليل البهيم ... ويقفون خلف الأبواب الصامتة، لينقضّوا على مَنْ تحمله الريح إليهم، أو الذين يتدحرجون ويسقطون، من أعالى الجبل. لأنفاسهم النتنة رائحة الموت، ولأنيابهم الحادّة صعقته المُهلكة.

– وأين سكّان هذه المدينة؟

قالت: هم سُكّانها

– لِمَ لا تُخلّصى المدينة منهم؟

قالت: أنتم الذين يجب أن يخلّص المدينة منهم..

– كيف؟

قالت: بأن لا تغيب الشمس.

– لكنها تغيب ..

قالت: أشعلوا شمسًا من دمكم وأبدانكم ..

وتجاوزنا المدينة ... وحطّت بى، فى غرفتى ... وقبل أن تزيح الشمسُ لحافَ البحر عنها ... عادت بى إلى خيمتى.

وما إنْ أنهى أبو ضحى كلامه، ونظر إلى شاويش القسم، حتى وجده ذاهبًا فى نومه!

* * *

وأبو ضحى شابٌ اعتقلته سلطات الاحتلال صبيحة يوم عرسه، وفى القسم، بدأ أبو ضحى الاختفاء ساعات طويلة، لا يراه أحد، لكنه يظهر، كاملاً، وينبع من بين المعتقلين، ساعة "العدد" فلا يجرؤ أحد على سؤاله أين كان، حتى لا يسخر منه ومن سؤاله، إذ كيف له أن يختفى وأين..؟؟

لكن أبا ضحى يختفى فجأة مثلما يظهر فجأة! والأكثر غرابة أنه ظلّ بعافيته، لا يطلب طعامًا، بل يوزّع حصته على زملاء خيمته، ومعها بعض السجائر الفاخرة ..

– منْ أين هذه السجائر يا أبا ضحى؟

يبتسم أبو ضحى ولا يجيب!

– هل أنت صائم، لماذا لا تأكل معنا، ألا تجوع؟

www.alkottob.com

يبتسم أبو ضحى ولا يجيب !

– أين حلقت ذقنك، وتطيّبت بهذا العطر، من أين؟

يبتسم أبو ضحى ولا يجيب .

وعندما يتسلل السائلون إلى الخيمة التى ينام فيها أبو ضحى، يرون، كالحلم، أن بُرْشه دون جسد، وفجأة يرون أبا ضحى بكامل سخونته يتقلّب على فراشه يقظًا !!؟

حار مسؤولو القسم فى أمر اختفاء أبى ضحى، وفى مسائل نظافة ملابسه وعطره الفوّاح وسجائره الفاخرة .

رصدوه خطوة بخطوة، وعيونهم على بوابة القسم التى تظل مغلقة بالمفاتيح الكبيرة والجنازير .. لكنه يختفى، كيف، وأين، وماذا؟؟

ذات مساء اجتمعت لجنة القسم فى خيمة أبى ضحى، واتخذت زاويةً للحديث معه، لسؤاله عن اختفائه المؤكد الغريب المبهم .

ابتسم أبو ضحى، وقال لهم بصوت هادئ: لن تصدّقوا إن قلتُ لكم!

– سنصدّقك، قُلْ ولا تخف، وسنتفهّم ظروفك، احكِ لنا بالتفصيل، ولن نقول لأحد شيئًا .. كُنْ مطمئنًا .

كانوا يُهيّئون له لكى يعترف، كأنه مشبوه!! وهم على ثقة بأن أبا ضحى أكثرهم صلابة وعطاء ووطنية، لكنّ الفضول يقتلهم وينهرهم ليعرفوا السرّ .

كرّر أبو ضحى قوله لهم: لن تصدّقوا روايتى . والأفضل أن تثقوا

بأن كل شىء على ما يرام . ولا حاجة لأن تقلقوا .. لكنهم ألحفوا فى الطلب، وأصروا عليه وألحّوا..

– لى أخت تحملنى، متى شئت، وكلما اشتهى قلبى الذهاب إلى ما أريد .. تحملنى تحت ثوبها، وتحطّنى، فى لحظة، حيثما حلمت، ثم تعيدنى برمشة عين، حيث كنت .

تلعثم أعضاء لجنة القسم، ونظروا بعضهم إلى بعض، مستغربين مندهشين، لا يعرفون، هل يصدقونه أم يطبقون بأيديهم على رقبته..

أدرك أبو ضحى هول مفاجأته لهم، فراح يشرح لهم الأمر بشىء من التفصيل، وبداية علاقته بتلك "الأخت" التى تلفّ به الكرة الأرضية، قبل أن يرتدّ جفن إلى جفن .

* * *

كان أبو ضحى نائمًا، ولّما أحسّ بأن يدًا تمسّد جبينه ووجهه برفق، غير مرّة، فتح عينيه، فوجد زوجته ممددة إلى جانبه، تبعث غمّازتاها ابتسامة الرضى .. ولّما اكتملت يقظته، وعلم أنه فى السجن .. هزّ رأسه كأنه يطرد حُلمًا غطّى عينيه ! ثم جال بنظره فى أرجاء الخيمة فلم ير سوى المعتقلين النيام المتقلّبين..

استعاذ بالله من الشيطان، وعاد إلى نومه .. وقبل أن يغفو تمامًا جاءه صوتها، بأنها تنتظره وتطلبه، فما عليه إلاّ أن يدير ظهره ليجدها بين ذراعيه بكامل نبيذها !

أدرك أبو ضحى جيدًا، أن هذا الصوت لم يكن قادمًا من رؤية أو

www.alkottob.com

حلم، بل إنه صوت من لحم ودم .. ومما زاد من خوفه أن يدير ظهره فيجد عروسه، بالفعل، إلى جانبه، وفى حضنه !!

لكن أبا ضحى رجل شجاع، ولا يخشى المفاجآت، وقرر أن يفعلها، فأدار وجهه، فأحسّ بدوار خفيف، ثم توازَنَ وفتح عينيه على مصراعيهما، فوجد نفسه فى سرير غرفة بيته !!؟

نهض عن السرير، وترجّل، وراح يلمس أُكُرة الباب، فوجدها حقيقية، ثم توجه إلى النافذة، وفتحها، فهبّ ريح الطوابين من أرجاء "دير السودان" وقرى مزارع النوبانى وعارورة وعجّول.. وها هو الجبل الذى يحمل قرية أم صفا ..؟!

نظر إلى عروسه، وغرق فى لثمة الحياة .. وما إن انتهى وحاول أن ينهض، حتى وجد نفسه على بُرشه فى الخيمة رقم ٢٦ وفى القسم ٣ .

فى الليلة الثانية، استيقظ على اليد التى تمرّر فروها على جبينه، مرّة أخرى، كان أقل خوفًا ودهشة، فتح عينيه فوجد عروسًا بكامل خلاخيلها وكحلها المرسوم، اعتدل فى جلسته، وابتسم لها كأنه يطمْئِن نفسه، ويشكرها على رحلة ليلة أمس، لكنها أشارت له أن يتبعها .

نهض أبو ضحى، وفتح باب الخيمة، فوجد نفسه محمولاً، دون أن يعى، وبعد أقل من لحظة، رأى حاله يقف أمام تلك العروس التى اقتعدت حجرًا أملس عند حافة بئر كأنها حفرة عظيمة معتمة .

– مَنْ أنتِ، وأين نحن، وماذا تريدين منى؟

ابتسمت له العروس ..

توقف أبو ضحى عن الكلام المباح، وقال لأعضاء لجنة القسم .. هذه هى القصّة، ولن أزيد !

أما مَنْ سيتفوّه بحرف واحد منكم عن حكايتى هذه، فأنا لستُ مسؤولاً عمّا سيقع له ! إنّى أحذركم، وقد أعذر مَنْ أنذر .

انسلت لجنة القسم، وهم ينتفضون رهبةً وخوفًا ..

فى اليوم الثانى، طلبت اللجنة من أبى ضحى أن يتم توظيف هذه "الأخت" لخدمة أهداف المعتقل ..

وعد أبو ضحى أن يطرح الأمر على "أخته" التى لم تحضر ليلة أمس أو اليوم . وفى المساء، جاءت "الشحرورة" تُنادى على رقم أبى ضحى ضمن أرقام المعتقلين المُفرج عنهم .

وقبل أن يخرج أبو ضحى من بوابة القسم، سأله رئيس اللجنة: كيف سنتصل بـ "الأخت"؟

ابتسم أبو ضحى، وهمس له قائلاً: كانت أحلام يقظة رائعة يا صديقى .

فى الأزمات، يكتشف الإنسان كنوزه المدفونة فيه ! ويدرك، ربما، بعد فوات الأوان، أن أشياء كثيرة سقطت منه، وهو غير آبه لها، وأن هذه القطرات، هى نسغ حيويته، وماء روحه .. وما عليه إلاّ أن يلملم نفسه من جديد، ليندفع فى دفاعه عن سماوات جسده وأرض قدميه. لهذا، وبعد حين من الصراع والمساجلة والمغالبة مع العدو الذى يسعى لإلغائه تمامًا، يكتشف أن فيه من القوة، ما يفوق خياله، وأن فيه قدرة احتمال تعزّ على الجبال، وأن شراينه تتسع

www.alkottob.com

لكل الغابات.

إن الإنسان أقوى مما يعتقد، وإنه لم يوظف أكثر من عشرين بالمئة من إمكانات وقدرات روحه وجسده وعقله، وإن فيه من الجبروت والغرابة وغير العادى ما يفهق أمامه مثل النيزك، إذا ما تعرّض للإنهاء أو الإفناء.

ولعل السجن، بكل ما يمثله من نظرية للتغريب والكسر والاحتواء، هو ما يستفزّ كوامن الإنسان الذى يبدأ الردّ، حتى يُشكّل نظرية مضادة، هى نظرية التحدّى والبقاء... وفى طريق تأصيل هذه النظرية، تنكشف جواهر البشر غير المرئية فيهم، ولآلئ الاختراق والخوارق المُغطاة تحت قشرة الرتابة ونمط الحياة.

وإلاّ، فكيف يمكن أن نفهم تحمُّل السجين آلام الجوع مدة تزيد على الشهر؟ أو البقاء يقظًا، دون أن يغمض له جفن مدة خمسة أيام متواصلة؟ أو استيعاب ضربات العصىّ والهراوات مدة خمس ساعات، دون أن تنكسر فيه إصبع؟ أو أن يهجم على الجندىّ الذى يسدّد فوهة بندقيته نحو صدره.. ولا يتردد فى الانقضاض عليه.. أو تقطيع الأسلاك الشائكة بالأيدى المجرّدة!

لا أبالغ، لأنّ مَنْ يمكث عامين أو أكثر، فى زنزانة عزل انفرادى، لا يرى أحداً ولا يكلّمه أحد، ويخرج عاقلاً معافى، وبكامل توازنه ووعيه، ليس آدميًا عاديًا، لكنه، وفى كل هذه الأحوال وما شابهها، يظلّ إنسانًا فلسطينيًا طبيعيًا، ومن الممكن أن يكون فيتناميًا طبيعيًا، أوجزائريًا طبيعيًا، أوجنوب إفريقى، أو برازيليًا طبيعيًا.

هل تصدقون أن معتقلاً فلسطينيًا، كان سيتمّ نقله إلى سجن آخر، وهو مضطر لحمل رسالة مهمة، قرأها مرة واحدة فحفظها كاملة عن ظهر قلب، دون أن ينقص منها حرف؟!

وأن معتقلاً آخر، تم نقله إلى مستشفى السجن، لإجراء عملية "الزائدة" له، قطع عضوه التناسلى بشفرة حلاقة، عندما خشى من أن تغريه مُجنّدة إسرئيلية، وتسقطه فى شباكها؟!

هل تريدون أسماء هؤلاء، غير العاديين، حسنًا! إن أسماءهم معلومة لدى كل مَنْ دخل معتقلاً من معتقلات الاحتلال!

* * *

عندما اعتقلونى للمرة الثالثة، وحملونى إلى مركز اعتقال الظاهرية، مرة أخرى، ومكثنا فى جحيمه أسبوعين تقريبًا، أخرجونا إلى ساحة المركز، وكالعادة، ربطوا كل اثنين من المعتقلين بكلبشة واحدة، يومها تقاسمت مع الأخ المناضل راضى الجرّاعى شرف الارتباط بقيد واحد.. وقبل أن نصل، بعد عشرين ساعة، إلى قسم "٥" فى "أنصار ٣"، وقبل أن تحرمنا إدارة المعتقل من الأخ راضى؛ بإعادته إلى مركز التحقيق فى مدينة "ملبّس" الإسرائيلية "بيتاح تكفا".

كُنّا نقف فى طابور ثنائى، فى ساحة مركز الظاهرية، فى انتظار الإجراءات وتعصيب العيون وركوب الحافلة، وعندها جاء ضابط إسرائيلى، وأشار إلى أحد المعتقلين، بعدها حمل جندى يهودى قضيبًا حديديًا غليظًا، ووقف على صندوق خلف المعتقل المُشار

www.alkottob.com

إليه، وهوى بكل قوته وحقده على رأسه .. فوقع السجين، وأسقط معه الشاب الذى كان مربوطًا وإياه بالكلبشة.. وبعد دقائق استيقظ "المضروب على رأسه"، ووقف بكامل وعيه كأنما سقط على رأسه عامود ماء . عندها همس لى راضى الجراعى قائلاً: يبدو أن هذا المضروب خليلى ! فرأسه يابسة، ولن تتأثر ولو ضربوه بقنبلة نووية.

أما أنت يا راضى، فكيف رأسك الآن، بعد كل هذه السنوات من السجن والمسؤولية ! هل أحالت الليالى شَعرك إلى فضّة من نهار... يا أبا شادى ! طوبى لك فى كل أحوالك أيها الرجل الباسل.

* * *

وفى معتقل المسكوبية، الواقع على ضفة شارع يافا فى القدس الغربية، حجزتنى المخابرات الإسرائيلية يومين، قبل أن ترسلنى فى "البوسطة" سيارة نقل المعتقلين، إلى مركز التحقيق فى طولكرم... والمسكوبية مركز توقيف حقير وخشن ودموى، وكان قد سبقنى إليه أخى وصديقى د. سمير شحادة، وكان حينها فى زنازين التحقيق فى المسكوبية كما علمت لاحقًا... وأدخلونى إلى إحدى غرف السجن .. فاعتقد السجناء أننى د. سمير شحادة.. فأوضحت لهم أننى صديقه، وعلمت حينها أنه هناك، كما كان هناك، وفى الغرفة التى أدخلونى إليها، فتىً لم يتجاوز السابعة عشرة من عمره، أمضى فى التحقيق المركزى، وتحت التعذيب المهول شهرين، ولم يعترف بأنه كان يعدّ "المولوتوف"... وأنه

أحرق أكثر من خمس دوريات عسكرية، إلاّ أن واحداً مِمَّن لم يحتملوا التعذيب اعترف بكل شىء، ورغم ذلك فالفتى لم يعترف، وتمت محاكمته، لاحقًا، على اعترافات رفيقه ! !

هل تذكر ذلك الفتى يا أبا نزار؟ ربما يقضى -حتى الآن- فترة سجنه، مع نزار فى معتقل عسقلان، وربما أصابته رصاصات سوداء، فى قلبه، مثلما أصابت ذلك الفتى "رامى" ؛ ابن أخينا عزّت الغزاوى، الذى سقط شهيداً، تاركًا حَمام الدار دون قمح أو غناء.

* * *

وكُلّما التقيت المناضل يوسف عزريل، أو صديقًا آخر يذكّرنى بأيام كتسيعوت "الجميلة" ! وبما فعله شاويش قسم ٤ الأخ الجسور أنور النابلسى. وقتها لم يصدق أحد ما رأى بأم عينه .. حتى سأله أحدهم: هل أنت من الأولياء، أصحاب الحظوة يا أنور؟ ! لكن أنور لا يزيد عن كونه مناضلاً شريفًا صلبًا، مثل كل هذه الآلاف التى تفترش رمل الصحراء.

- إذًا، ما الذى جرى؟

حدث أن رمى أحد المعتقلين رسالة، بوساطة "الحمام الزاجل" من قسم٢ إلى قسم٤، لكن الرسالة وقعت بين أسلاك السياج "الشيك"، وكان مستحيلاً، أن يتم التقاط الرسالة - التى تحتوى على معلومات أمنية خطيرة تتعلق بأحد التنظيمات - من بين الأسلاك الشائكة، وكان لا بُدّ من إحضارها، عندها مَدّ أنور النابلسى ذراعه كاملاً بين الأسلاك، وراح يدفعها، كأنه يمددّها، حتى

www.alkottob.com

وصلت أصابعه إلى الرسالة، فالتقطها وسلّمها للفصيل المعنى بالأمر، دون أن تنخدش ذراعه، أو ينقدّ كُمّ قميصه!!

أين أنت الآن يا أبا رامى؟ هل ما زلت تطرق بيمينك القادرة على الحديد، حتى تقوّمه، وتصنع منه بوّابات لبيوتات القدس! على ذراعيك الرضى والبركة!

* * *

وحدث أن كُنّا عائدين من زيارة المحامين، وفى طريق عودتنا إلى الأقسام، قام الجنود بتفتيشنا، تفتيشًا دقيقًا، وصل، كالعادة، إلى تحسيس ما بين أرجلنا، لكن جنديًا بذيئًا حاول أن يُجبر أحد المعتقلين على الانحناء ليفتش مؤخرته، فرفض المعتقل ... فقام الجندى التعس وصفع المعتقل على وجهه . بعد ذلك لم نر إلاّ والجندى يطير فى الهواء ... ويسقط فى جهة، ورشاشه فى جهة أخرى.. لقد وقع بين يدى مدرب كاراتيه! ولم يوقف ذلك الشاب إلاّ جديّة الجنود الذين سحبوا أقسام أسلحتهم فى وجهه، إذا ما استمرّ فى ضرب زميلهم، وبعد شهر ظهر ذلك المدرب الحزين، بعد أن أكلت العصىّ من جنباته، وهو مقيّد فى الزنزانة ليل نهار.

* * *

فى إحدى جلسات اللجنة النضالية العُليا، خلال فترة اعتقالى الثالثة عام ١٩٨٩، دار نقاش ساخن حول مفهوم الوحدة الوطنية، والتمثيل النسبى، ومدى نفوذ "فتح" وسيطرتها على القرار، ومدى المركزية التى تتمتع بها قيادة حركة "فتح" داخل بناءاتها التنظيمية

الفضفاضة .. وكُنّا، على ما يبدو، وقتها، لم نتعلّم ما يكفى لنكون مستمعين جيدين! حيث إن دفاعنا "العشائرى" عن الحركة، هو ما دفع القوى الأخرى لتكون عشائرية، هى الأخرى! لقد كان الجميع ينتمى إلى "دين" سياسى، لا يقبل له خدش أو نقد. وبعد أن انتهت الجلسة، مضيتُ أنا وممثل الجبهة الشعبية فى اللجنة، إلى رياضة المشى فى الساحة .. وفجأة، وقف زميلى الرفيق فريد م.، وقال لى: سأُخبرك بشىء!

– ما هو يا فريد؟

ذهبنا، وجلسنا بعيدين عن الزملاء، وبدأ شرح السيناريو السياسى القادم ... عندها أحسست بأنه يبالغ، أو أنه مغرم بالفنتازيا والتحليل اللامعقول.

هل تدرون ما الذى قاله الرفيق فريد؟

لقد قال لى، تقريبًا، كل ما جرى لاحقًا فى مؤتمر مدريد، وفى أوسلو .. وأنّ الحلّ سيكون حكمًا ذاتيًا .. وحتى سنوات طويلة! عندها لم أصدّقه! فهل تُصدّقون الآن، أم صدق المحللون السياسيون ولو كذبوا؟

عذرًا يا فريد .. لم يعد الأمر سرًّا .

* * *

يا أيُّها "الختيارُ" إنّكَ فى ضلوعِ صغارِنا
الدَّفَقَ الذى يُعطى الطفولةَ نُضجَها
أنتَ الذى يُعطى الحجارةَ

www.alkottob.com

فى أكُفِّ صغارِنا، الوَهَج المُهابْ
وصغارُنا وكبارُنا والأُمَّهاتُ
- بزفَّة الشهداءِ فى برقِ الصِّدامِ
وفى النِّقاشات السريعة -
يهتفونَ لوجهِك القُدُسىّ
أَنت الرمزُ
أَنتَ نَشيدُنا العَصرِىّ...
فاحكُمْ بيننا بالعَدْل !
أنتَ مُحاصَرٌ بالنارِ والأَسوارِ
حَولكَ إِخوةٌ أعداء
أمزجةٌ وتجّارٌ
وألسنةٌ يُنَضْنِضُ سُمُّها حولكْ
فلا تَأمنْ لَهُم ... تهلكْ
وصدِّق كلَّ مَنْ عانوا ومَن جاءوا
ومَنْ ماتوا
ومَنْ ظَلّوا، برغمِ الثلجِ، فى الخندقِ
هُمو أَهلكْ
فلا تهلكْ ..
فكلُّ الناسِ، رغمَ دموعِها، خلفكْ
وكلُّ النّاسِ أضحى دَربُها دربكْ
ولم نبدأ لكى تُنهى حكايَتُنا

بهذا الصَّمت والليلكْ
فلنْ يَعطوكَ، مَنْ ذَبحوكَ، غَيرَ الكَذْبِ
لن يأتوكَ إلاّ إنْ رأوا سَيفَكْ
ولَن يأتوكَ إنْ ظَنّوا
بأَنَّكَ سائرٌ وَحدَكْ
ولَنْ يَعطوكَ إلاّ ما سَتأخذهُ
بساعدكَ الّذى يَشْتدُّ بالمعْرَكْ
ولَنْ يَعْطوكَ إلاّ ما سَتأخذهُ
بساعدكَ الّذى يَشْتدُّ بالمعْرَكْ ...

* * *

كثيرًا ما كانت "الشحرورة" تأتى، وبيديها أوراق الإفراج، وأحيانًا تكون الأوراق التى بين يديها أوراق تجديد الاعتقال الإدارى ستة أشهر أُخرى .. وبهذا، فإن "الحفلة" التى كُنّا نحرص على إقامتها ليلة يوم الإفراج الموعود والمحدد تنقلب إلى جلسة تضامن مع المعتقل الذى جددّوا حجزه نصف سنة كاملة ! أما الذين يتم ذكر أرقامهم كمُفرج عنهم، على ذمّة الشحرورة، فإنهم يبدأون تسليم ملابسهم الداخلية النظيفة لصندوق التموين، وبمصافحة المعتقلين وتوديعهم ..

.. وبالتأكيد، فإن عليهم أن يحفظوا الرسائل الشفوية من المعتقلين إلى أهاليهم أو أصدقائهم، ونقل الأمانات إلى أصحابها، وغالبًا ما يكون آخر المودّعين شاويش القسم، الذى يدعو الله بقوله

www.alkottob.com

"عُقبالنا" .. فيجيبه كامل جبيل : إن شاء الله لّما تروّح أنت وغسان الحرامى تنفقسوا !

– ما هى الفقسة هذه يا كامل ؟

يقول كامل : عندما أفرجوا عن "فلان" بعد سنة كاملة، ووصل إلى بيته، وسلّم كلُ أهل البلد عليه .. وذهب للنوم .. انفقس ! كانت امرأته "جاييتها" (العادة الشهرية) .. وعقبال عند المُفرج عنهم يا شباب ..

يضحك الجميع، وينصفق الباب، وتلّوح الأيادى للذاهب إلى صغاره وأم عياله على جناح الحرية العزيز !

* * *

ناعم .. ناعم .. هالريحان
كُلّه ريحه .. هالريحان
قَطْفه منّو .. هالريحان
تغنى عنّو .. هالريحان
يا حْليل إموّ .. هالريحان
ما فى منّو .. هالريحان

.. ويكون العريس قد خرج من حَمّام العُرس، وجلس ليتزيّن، فيبدأ "الحلاق" كشط لحيته، وتسريح شعره، ودهنه بالأطايب والعطور .. وصوت الشبان حوله :

خففّ موسك يا حلاّق
إعملْ لهُ غُرّة .. يا حلاق

هكذا تبدأ حفلة زفاف المعتقل الذى يجلس بين يدى (حسام الحرامى) ليشذّب لحيته، ويهندس شَعره، ويهيئه للقاء يوم غدٍ، يوم الإفراج .

والمعتقل، حتى يخرج إلى بهاء اللقاء الموعود، عليه أن يجتاز "فقستين" ؛ الأولى "فقسة" أن يتم تجديد اعتقاله ستة أشهر أخرى، وإذا تجاوز هذه، فعليه أن يجتاز "فقسة" كامل جبيل، وهى أن تكون الزوجة مستعدة ! وعلى رأى كامل (مش جاييتها) وعلى رأى المثل : مَنْ حفر حفرة لأخيه وقع فيها، فقد وقع كامل "أبو أيمن" فى الفقسة الثانية، بعد أن انفقس فى الأولى، وها قد مرّ عام كامل على كامل وهو يحلم .. وبستاهل !

* * *

السجنُ يصقل زندَ الفُتوّة
يزرعُ معنى التجلّد فى الروحِ
يخلقُ روحَ الجماعةِ فى الفردِ
يسكبُ فولاذَ صبرِ الرجال بقلبِ الجزوعِ
ويصهرُ صلصال آدمَ فينا
لنغدو شلاّلَ نورٍ ونار .
والقيدُ فى السجنِ لا يغلبُ السجناءَ
إذا لم يصل للجنان
وأخطرُ ما فى السجونِ
انتقالُ ظلام الزمان المملّ لعقلِ السجين

www.alkottob.com

ويومُ السجين انتظارٌ ثقيلٌ لأى انبلاج
وكلُ سجينٍ يقولب ساعاته لانتظارِ الخلاص
ويرغبُ فى أن يلوكَ الجرائدَ بحثًا عن الضوءِ
يقرأُ .. يلعبُ بالزهرِ ...
وحين يخطّ الرسائلَ للأهل
يُذهلُه أى شىءٍ أليفٍ
ينتظرُ المعجزاتِ التى ستخلّصهُ فجأةً
من رمادِ القيودِ
يُجمّلُ أحزانَه بانفعالٍ
ويغضبُ من أىّ أمرٍ صغيرٍ
ويسعى لكسرِ النواميس بعضَ الأحايين
يبكى بصمتٍ
ويضحكُ من أىّ شىءٍ سخيفٍ
وتُغريه بعضُ الأحاديثِ والنكتِ الشبقيّةِ
يعشقُ لون الهدوءِ المعذّب
فى أُغنياتِ الأصيل
ويلعنُ نوعَ الطعامِ المُكرّر
يغضبُ من قلّةِ الأكلِ واللّبسِ
يرمى بجثته للرّصاص
إذا مسّهُ الذلّ مسًّا طفيفًا
ويجهرُ بالانتماءِ اذا ما أحسّ بريحِ التَعدّى

ويحتجّ إن غابَ مشط التساوى
ويحترمُ الشيبَ والسنواتِ التى قدّها الظُلْمُ
من جسدِ الصامدينَ
ويكرهُ إهمالَ هذا وذاك
يريدُ حياةَ المئات
كما يشتهى أن تكونَ الحياة
ويهتمّ كى يعرف السرّ فى الحركات
أو الجلسات
ويُسعده أن يقوم ببعض المهمّات للسجناءِ
ويكرهُ غسلَ ملابسه والأوامرَ
يختلقُ العُذرَ إنْ شتمَ الآخرين
ويُسْقطُ فعْلَته فوقَ وجه الزمان
ويأملُ أن تتحقق بعضُ الإشاعاتِ
حين تكونُ على صلةٍ بالرواح
ويبحثُ عن ذاته فى العلاقاتِ
والشللِ المُنتقاة
وكلّ السجونِ يُوحدّها أملٌ لا يجفّ
ويجمعُها الخوفُ والانتماءُ
وصمتُ التوتر والرعب
والجوع والارتقابْ .
وليلُ السجينِ حديثٌ يطول عن الانتفاضةِ

www.alkottob.com

والبيتِ
والعشقِ
والسجنِ
والخبزِ
وشوشةٌ مع صديقٍ
تفاصيلُ حادثةٍ قد جرت عن قريبٍ
حكايا عن الجامعاتِ وبعضِ الرّجالِ
عن البلدِ الذى ينتمون إليهِ
وكيف تبدّل
كيف يريدونهُ أن يكونْ
عن الاجتماعِ أو الاقتصادِ
عن الشعرِ والساسةِ الخارقين
عن الحلّ والرّبط
والرفضِ والموتِ
والعيد ...
وليلُ السجينِ إعادةُ ترتيبِ كلّ الدقائق
إخضاعُ ما قد مضى للسؤالِ
ارتخاءٌ
دعاءٌ
هدوءٌ
ورحلةُ فكرٍ عميقٍ

ورسمُ حدود الزمان الذى
سوف يتلو الخروج من السجنِ
أحلامُ صَحْو تعوّضُ ما قد تطايرَ منّا
وما ينقصُ الكف والقلب والعين
ذكرى تشعّ بقنديلها الأرجوانى
رحلةُ موتٍ شهىّ
وكلُ السجونِ تسافرُ فى الليلِ
خلفَ الجدارِ
... وتحلمُ بالصّبحِ والانقلابْ .

www.alkottob.com

يلد السَحَرةُ وقت الغروب، حتى يكونوا قادرين على تأصيل هذه الغربة! والغروب فى الصحراء لوحة تتداخل فيها ألوان المغيب مع بياض الغيوم الرقيقة، فتكتسب الغيوم لون الحنّاء الحزين. ودائماً، ثمة دمعة كبيرة، فى السماء، تظل حتى الخيط الأخير الذاهب إلى البحر، كأنها وردة جُلنّار فقدت أُمها، وأتت لتشاركنا الأسى الطرىّ.

وعلى مرمى عينيك، ترى العوسج يستعد للنوم، تحت لحاف الندى. وثمة زهرة يتيمة تذبل عند حمأة الظهيرة، لتستعيد تفتّحها! وكم تجمّعت حدقاتنا حولها، وحاولنا أن نستقدمها نحونا... لكن دونها خرط القتاد والبساطير.

وفى حضرة هذا الغروب الرسولى، وبعد يوم من سقوط

www.alkottob.com

الشهيدين الشوّا والسمّودى، أى يوم ١٩٨٨ / ٨ / ١٧، وقبل يوم إفراجى الأول بساعات، جلس المعتقلون، وما زال وحى المأساة يُجلّل المكان، ليشاركوا فى الأمسية الشعرية التى أحياها الصديق وسيم الكردى وأنا.. وكان لا بُدّ من أن تكون القصائد، مُكملة للمشهد الدامى، ولحالة الغضب والحزن، والصمت المتوتر الذابح . وراح وسيم يقرأ قصائده، ماسكًا الأوراق بيده اليسرى، فيما كانت يده اليمنى تكسر هواء الصمت، وتعيد تشكيل الغيوم، حتى سقط العندم، وتقاطر من ذراعه ! كان الصمت مدوّيًا، أكاد أسمعه ! ! لكن وسيم، استطاع بصوته العميق المنفعل، وبحركة يده المُتّسقة مع صور الكلام الواضح، أن يكون أقوى من الصمت، وحلّ الليل برداء مصاصى الدماء السوداء، وما زالت كلمات وسيم الكردى ترمى نداءاتها، وتردد الصحراء أصداءها حتى الساعة:

قامت من الرمل البشائر
طوّفت أنسامها
رفّت أهازيجًا
زغاريدًا تكابر
قامت من الوجع الضفائر
وبدت ملوّحة
مناجية حداق النبع
أجساد المعابر
واستفاقت من هضاب العمر

تستبق الهواءَ
هم فتيةٌ نهضت زنابقهم
كآلهة
تخصّب فوهات نشيدهم
وتقضّ صمتًا
قد تعلق فوق أجراس البقاء

* * *

وأنت يا سامى الكيلانى، يا شقيق الشاهد والشهيد.. كيف ستُهّرب قصائدك وقصصك القصيرة؟ وأنت يا صديقى وسيم الكردى، كيف ستحمل "جدار الدم" وباقى القصائد التى تلوّنت بالعوسج والندى والنجمة العاشقة؟ وأنت يا أخى عبد الناصر صالح، كيف ستحمل روحك المطرزّة بأرجوان الشهيدين وصراخ المذبوحين... كيف سينحنى مجد القصيدة أمام هراوات التفتيش؟؟ هل ستحفظون قصائدكم عن ظهر قلب، وتعيدون كتابتها، مرّة أخرى ؟؟ أجبنى يا جمال بنورة.. ويا كل الكُتّاب المحبوسين!

* * *

لا بأس. فالحاجة أم الاختراع، وثمة "الكبسولات" اللواتى سيحملن كل الآيات الذهبية، باطمئنان وأمان، وستصل كل القصائد إلى المنصّة كاملة، دون نقص أو اعتداء .

ثمة ورق شفاف، يكتب على صفحته المعتقلون قصائدهم وحكاياتهم وأخبارهم، بقلم رفيع، وبخط صغير، يشبه النمل

www.alkottob.com

الأسود المتراص، حيث بالإمكان كتابة خمس صفحات على ورقة شفافة بحجم كفّ اليد، ومن ثم يتم ثنى الورقة وطيّها وجمعها حتى يصبح حجمها بحجم حبّة الفول، وتتّم تغطيتها غير مرّة، بالنايلون، وتذويب نايلون إضافى على جنباتها.. حتى تصبح شبه كبسولة الدواء المُغلقة، لا يخترقها الماء أو الهواء. وقبل الخروج من القسم، يقوم السجين بِبَلْع عدد من الكبسولات، مع قليل من الماء.. وعندما يصل إلى بيته.. يذهب لقضاء حاجته، فتخرج الكبسولات.. ويتم غسلها جيداً، وفتحها، وبهذا تمّ نقل وحفظ كل أدبيات وأسرار السجون!

بعد ثلاثة اعتقالات إدارية، فى المعتقل نفسه، والانتقال من قسم إلى آخر، أصبح وجهى شبه مألوف للشحرورة، التى جاءت فى اليوم الأخير من الأشهر الستة الأخيرة، ونادت على رقمى، ضمن المفرج عنهم!

– كان رقمى فى الاعتقال الأول (٣٥٨٩)، وفى الاعتقال الثانى كان رقمى (٦١٦٨)، وفى الاعتقال الثالث (٩٥٧٦)، أليست أسماء جميلة؟!

هل أقول إننى فرحت؟ أم أقول إن الأسى حلّ فجأة فى صدرى، وانقبضتُ، وأصابتنى كآبة غامضة!!

* * *

لم يكن "أنصار ٣" يشبه "كاميلوت" إلاّ بجسارة مواطنيها،

www.alkottob.com

وتفانيهم الحقيقى دفاعًا عنها، لتظل المدينةُ الذهبية، حارسةً للبحر والمراعى . بل إنّ كل معتقل فى "أنصار ٣" كان يطاول الملك الشهيد، الذى حلم طوال عمره بالمرأة، وبرؤية مدينته ناصعة النقاء والعدل . وحتى، حين كاد يتزوج الأميرة المستنجِدة – وكان يشكّ فى أنها تعشق "لانسيلوت" الليث الآدمى الذى ربتّه الغابات – لم يشأ أن يحضن جسداً، روحه فرّت منه إلى غيره، لهذا كان يقول للأميرة: تزوجى الملك، واعشقى الرجل الذى يلبسه الملك، وإلاّ فابتعدى! لكن الملوك الحقيقيين، لا يموتون إلاّ شهداء، أمام النبال وطعنات الرماح، وعيونهم شاخصة نحو شمس الشروق، التى تتطالع من العيون الدامعة .

ربما كانت أرض "كاميلوت" المُمرعة بالزهر والعسل ساحرة إلى حدّ الخوف، أما أرض "أنصار ٣" الرملية، فكانت مسحوقًا بشريًا ناشفًا، قلّبته الرياح بعد أن تآكلت الأجساد، وتحلّلت إلى حبّات تذروها الأيام منذ آلاف السنين .

* * *

هنا المدينة الجهنمية الكاملة الفاضلة! "أنصار ٣" الذى حقق "لتوماس مور" حلمه كاملاً على هذه الرمال، وأكاد أصرخ أن هذا المعتقل هو "جزيرة الشمس" التى تجاوزت مدينة الفارابى الفاضلة، لأن حىّ بن يقظان – الذى تشبه أيامه الأولى أيام النبى موسى عليه السلام – أخذته الغزالةُ إلى حليبها، قبل أن يكشف له البرقُ الحقيقة! مثلما تجاوزت جمهورية أفلاطون التى أبقت على التمايز

الطبقى، بل كيف لها أن تكون "فاضلة" وقد أقصت الشعراء والمبدعين، على اعتبار أن "الفن" صورة مشوّهة عن واقع مشوّه أصلاً؟؟! لقد تخطى "أنصار ٣" كل الأحلام التى تطلعت لإنشاء عالَم عادل ومعقول . لكن مدينتنا الكاملة "أنصار ٣" تجمع بين كثبانها كل ما قاله يوليوس فوتشيك فى "تحت أعواد المشانق"، وأوراق معين بسيسو الفلسطينية، وشرق عبد الرحمن منيف المتوسط، وأشعار ناظم حكمت. وتنطبق عليها، انطباق الحديد على الحديد، نفحات خريجى المعتقلات الصحراوية والرطبة من المحيط إلى الخليج، ورواية "المفاتيح تدور فى الأقفال" لعلى الخليلى، ورسائل عزت الغزاوى الرائعة التى لم تصل بعد، وما قاله عدنان جابر فى "القيد والحرية"، وكتاب "السجن ليس لنا" لمعتقلى سجن نفحة الذى أعدّه وحررّه عطا القيمرى، و"سجينات الوطن السجين" لريموندا الطويل، وكل ما كتبه جبريل الرجوب وعبد الستار قاسم وفاضل يونس وحسن عبد الله وناهدة نزال، عن المعتقلات الإسرائيلية . .

* * *

هنا المدينة الجهنمية "الفاضلة"، و"الكاملة" "أنصار ٣"، الذى حقق "العالم الجديد والشجاع" كما تصوره الدوس هكسلى بقمعه ووحشيته وسلبه روحَ وإرادة الإنسان، وتحويله إلى مجرد هيكل عظمى دون أدنى مقومات .

ومن عجب أن العقلية الاستعمارية الإمبريالية تشرب من نبع

www.alkottob.com

واحد ؛ "أنصار ٣" ، هو ذاته عالم الدوس هكسلى ، وهو ذاته جزيرة العقاب كما تصورها فرانز كافكا . العقلية الإمبريالية الاستعمارية تعتقد واهمة أنها تستطيع حمل الإنسان إلى نقطة يتخلى فيها عن روحه وإرادته وأحلامه وطموحاته .. باستعمال القوة ، العزل ، التعذيب ، القمع ، زرع اليأس فى النفوس ، تذويب الإحساس بالتمييز ، قتل الإبداع ، إنهاك الجسد من أجل إنهاك الروح .

"أنصار ٣" ؛

المدينة الجهنمية الفاضلة ؛

آخر ما وصلت إليه عقلية فاشية عنصرية من أساليب فى تنميط جزيرة عقاب صحراوية بعيدة ومنعزلة ، مستفيدة من سرمدية الصحراء وأبدية الشمس ، من عقاب القرّ وخناجر الحر .

"أنصار ٣" ؛

معسكر اعتقال ، أو قل ، معسكر تجميع يشبه معسكر تربلنكى أو أوشفيتس ، أريد له أن يكون تقطيراً لكل معسكرات الإمبرياليات السابقة ، وتركيزاً لكل تجارب إجهاض الثورات والشعوب ، من خلال هذا الاحتكاك اليومى بين القاتل وضحيته ، بين السجان وسجينه .

مدينة جهنمية كاملة هو معسكر "أنصار ٣" ،

وكان علينا أن نطوّع أجسادنا أولاً ، وكان علينا أن نحصّن إرادتنا ، وكان علينا أن لا نرى من خلال عيوننا ، وإنما من خلال هذه الأرواح التى تسكننا لتجعل من أجسادنا لا تشعر بحرٍ أو بقرّ ،

ولنحتمل صحراء فلسطين الجنوبية القارسة الموحشة ، ولندرّب أفاعى تلك الصحراء لتخدم "التنظيم" .

كان علينا أن نجعل من مدينتهم الجهنمية الكاملة ، وعالمهم الجديد مجرد أضحوكة ليس إلا ، وقد فعلنا .

* * *

كان الوقت عصراً ، وبعد ثلاث ساعات ، انفتح الباب وخرجت .. بعد عناق ودموع ووشوشات ، وبلعت كبسولات ديوانى الشعرى الثالث (رغوة السؤال) الذى رأى النور فى كتسيعوت . وكالعادة ساقونا إلى الساحة التى تم استقبالنا فيها ، سلّمنا العهدة (البنطال والقميص) ، وأعادوا لنا لباسنا المدنى الذى اعتقلونا ونحن متلبّسون فيه . وأعطوا كل واحد منا ورقة بالعبرية مختومة ، تفيد بأن حاملها مُفرج عنه من معتقل "كتسيعوت" ، تبقى معنا ، حتى نذهب لاستعادة " أماناتنا" من المركز الذى اعتقلونا فيه ، وحوّلونا منه إلى "كتسيعوت" . والأمانات هى : الهوية الشخصية ، ساعة اليد ، الفلوس ، الخاتم ، حزام البنطلون ..

وركبنا الحافلة التى ستوصلنا إلى مفترق بلدة راهط البدوية الواقعة ما بين الخليل شرقًا وبئر السبع غربًا ، وهناك ، علينا أن نجد وسيلة لتوصل كل منّا إلى بلدته .

وصلنا إلى مفترق راهط منتصف تلك الليلة .. وكنّا نخشى من أن تمر سيارة عسكرية أو متطرفون إسرائيليون يرشقوننا بالرصاص .. وينتهى أمرنا . لهذا كان عِرْق الرقبة ينبض بصوت مسموع .

www.alkottob.com

وبعد نصف ساعة توقفت سيارة تحمل نُمرة منطقة الخليل، ركبناها، بعد أن اعتاد سائقو السيارات على التقاط المُفرج عنهم .. ونقلتنا السيارة الصغيرة، وكنّا ثلاثة، حتى دخلنا بلدة الظاهرية، وهناك نزلنا...

وأمام أحد البيوت، ظهر شاب، سألَنا عن أمر وقوفنا ؟! فشرحنا له الأمر، .. فما كان منه إلاّ أن عانقنا بحرارة، حتى أصابتنى الريبة من مبالغته فى الترحاب بنا .. لكننا تبعناه إلى بيته، ودخلنا، فأوسع لنا الجلوس، فى غرفة الصالون المتواضع، وذهب إلى داخل البيت، وعاد مبتسمًا مُرحِبًّا بنا .. وبعد دقائق كان البيض المقلى وطبيخ العنب والجبنة البيضاء والخبز وإبريق الشاى يُعبئ طاولة الوسط التى كانت أمامنا !

ورغم الجوع، لم نأكل، كُنّا مشغولين بالوصول إلى بيوتنا، لكنه أصرّ على أن نأكل ونشرب الشاى ونُدخّن .. حتى يحضر لنا سيارة توصلنا إلى رام الله !

تَركَنا وحدنا فى بيته .. فازداد خوف واحدٍ منا، حتى كاد يهرب من البيت، لولا أننا تداركناه، وأقنعناه بأن هيئة الرجل تطمئن .. وبالفعل حضر، بعد قليل، مع رجل سمين، لم يمشط شعره، كأنه أيقظه من نومه .. وسألَنا الرجل: أين ستذهبون؟ فقلنا: إلى رام الله، فقال: تدفعون ثلاثمئة شيكل، فوافقنا، وقلت له: سنعطيك المبلغ فور وصولنا إلى البيت، إطمئن.

وقبل أن نخرج من البيت، سألت صاحبه: ما اسمك؟ فضحك، وقال: فاعل خير، الله معكم !

ركبنا سيارة الأجرة، وبدأنا نتجاذب الحديث مع السائق، وكان اسمه مصطفى، (أبا درويش) .. وسألت أبا درويش: مَنْ ذاك الرجل الذى استضافنا فى بيته؟ فقال: هذا ابن محمود أبو شرخ، وهو رجل طيّب، وله أخ فى سجن عسقلان .

.. وصلنا إلى مدينة الخليل، وقبل أن نخرج منها، وفى وسط الشارع المؤدى إلى بلدة حلحول شمالاً، فى منطقة "رأس الجورة" أوقفنا حاجز للجيش الإسرائيلى .. لنمضى ساعة كاملة فى استجواب ممضّ، وتفتيش دقيق .. وسمحوا لنا بمواصلة الطريق .. ووصلنا إلى القدس !! لقد كانت مدينة أشباح، تجوبها دوريات عسكرية خائفة، وجنود يقعقعون بأسلحتهم، كأنهم يوقظون الجنّ من حولهم، ليطردوا الرعب المحيط بهم . وعلى الساعة الثالثة صباحًا، وصلت إلى بيتى الواقع على مشارف رام الله، فى منطقة ضاحية البريد، شمال القدس، وطلبت من أبى درويش والشابين المفرج عنهما معى، أن يتفضلّوا لكى أُعطى السائق أجرته، ولأقوم بواجب الضيافة !! لكن أبا درويش نظر إلىّ، وقال: أذهب لعائلتك، حقّى وصلنى، وسأحرص على إيصال الشباب كلاً إلى بيته فى رام الله وبيتونيا، لا تقلق !

– ولكن يا أبا درويش ..

لا تكمل، قال أبو درويش، "فأنتم لستم وطنيين أكثر منى، وهذا واجبى" ..

* * *

www.alkottob.com

أُكتُبْ رسالتك الجديدةَ
للصغارْ
يا ليْلكَ الأطفالِ يا نُوّار
يا نَغَمَ الهزارْ
سيجيء فجرُ الانتصارْ
وستشهدون نهاركم
والليلُ، يومًا، لن يعودْ ..
فلتشهدوا
هذا زمانُ الانتفاضة
إنّه زمنُ الصعود

* * *

ربما لن أعرف أبا درويش، إن رأيته مرّة أخرى. لكننى أراه وأرى ابن محمود أبو شرخ وآلاف الوجوه المعفرّة بالرمل والشمس، فى كل الوجوه التى تطالعنى أنّى ذهبت .. من عكا إلى رفح، ومن يافا إلى أريحا، ومن البيوت التى تعجن حنّاءها، الآن، تحت شبابيك الجزّارين، إلى الطرقات التى جعلت صدورها العارية سواتر، تردّ الدخلاء الذين يتراجعون، وسيتراجعون حتى يدخلوا فى التيه القادم الطويل، ما داموا مرهونين لعقدة الأغيار، وحلّ المقاصل المثالى! وما دام الطفل الفلسطينى مضطراً ليحمل أمتّه العربية الإسلامية على كتفيه .. ويمضى بها إلى فضاءات القرن الجديد .

الكاتب

*** المتوكل طه**

- من مواليد مدينة قلقيلية - فلسطين، العام ١٩٥٨، (دكتوراه فى الآداب).
- اعتقلته سلطات الاحتلال الإسرائيلى غير مرّة.
- انتخب رئيسًا لاتحاد الكتّاب الفلسطينيين من ١٩٨٧ - ١٩٩٥.
- انتخب رئيسًا للهيئة العامة لمجلس التعليم العالى الفلسطينى من ١٩٩٤ - ١٩٩٢.
- شغل منصب وكيل وزارة الإعلام الفلسطينية من ١٩٩٤ - ١٩٩٨.
- أسّس "بيت الشعر" فى فلسطين العام ١٩٩٨، مع عدد من المبدعين الفلسطينيين.
- انتخب أمينًا عامًا للاتحاد العام للكتاب والأدباء الفلسطينيين العام ٢٠٠٥.
- رئيس منظمة "شعراء بلا حدود" فى فلسطين.
- يشغل منصب وكيل وزارة الإعلام ٢٠٠٦.
- صدر له أكثر من ثلاثين كتابا فى الشعر و النقد والنثر
- شارك فى مئات المؤتمرات والمهرجانات، ونشر الكثير من أعماله فى الداخل والخارج، وترجم عدد من أعماله إلى عدّة لغات.

www.alkottob.com

للنشر فى السلسلة :

* يتقدم الكاتب بنسختين من الكتاب على أن يكون مكتوباً على الكمبيوتر أو الآلة الكاتبة أو بخط واضح مقروء. ويفضل أن يرفق معه أسطوانة (C.D) أو ديسك مسجلاً عليه العمل إن أمكن.
* يقدم الكاتب أو المحقق أو المترجم سيرة ذاتية مختصرة تضم بياناته الشخصية وأعماله المطبوعة .
* السلسلة غير ملزمة برد النسخ المقدمة إليها سواء طُبع الكتاب أم لم يطبع .

www.alkottob.com

www.alkottob.com

صدر مؤخراً فى سلسلة
آفاق عربية

111- المقهى الأسبانى.....عائد خصباك

112- مديح الهرب.....خليل النعيمى

113- مجنون زينب.....جمعة اللامى

114- لا أخوات لى.....عناية جاير

115- تصحيح وضع .....أحمد زين

116- تشاو روبرتا.....غالية قبانى

117- عين الهرّ.....شهلا العجيلى

118- ضوّ البيت /مريود/ دومةودحامد.....الطيب صالح

119- وليمة قمر ..... شربل داغر / تقديم: مارى تريز

120- فى غيابها.....نبيل سليمان

121- ما بين عمر وآخر ..... جودت فخر الدين

122- ... لأنى لستُ شخصًا آخر ..... مُنذر مَصرى

123- القارورة..... يوسف المحيميد

www.alkottob.com